سورة الكافرون

ست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾

اعلم أن هذه السورة تسمى سورة المنابذة وسورة الإخلاص والمقشقشة، وروي أن من قرأها فكأنما قرأ ربع القرآن، والوجه فيه أن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات والنهي عن المحرمات، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وإلى ما يتعلق بالجوارح، وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب فتكون ربعا للقرآن، والله أعلم.

اعلم أن قوله تعالى ﴿قُلْ﴾: فيه فوائد: **أحدها**: أنه عليه السلام كان مأمورًا بالرفق واللين في جميع الأمور كما قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ثم كان مأمورًا بأن يدعو إلى الله بالوجه الأحسن: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥] ولما كان الأمر كذلك، ثم إنه خاطبهم بيا أيها الكافرون، فكانوا يقولون: كيف يليق هذا التغليظ بذلك الرفق؟! فأجاب بأني مأمور بهذا الكلام لا أني ذكرته من عند نفسي. فكان المراد من قوله: ﴿قُلْ﴾ تقرير هذا المعنى. **وثانيها**: أنه لما قيل له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهو كان يحب أقرباءه لقوله: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ﴾ [الشورى: ٢٣] فكانت القرابة ووحدة النسب كالمانع من إظهار الخشونة فأمر بالتصريح بتلك الخشونة والتغليظ فقيل له: ﴿قُلْ﴾. **وثالثها**: أنه لما قيل له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٧] فأمر بتبليغ كل ما أُنزل عليه، فلما قال الله تعالى له: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ نقل هو عليه السلام هذا الكلام بجملته، كأنه قال: إنه تعالى أمرني بتبليغ كل ما أُنزل عليَّ والذي أُنزل عليَّ هو مجموع قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فأنا أيضًا أبلغه إلى الخلق هكذا. **ورابعها**: أن الكفار كانوا مقرين بوجود الصانع، وأنه هو الذي خلقهم ورزقهم، على ما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ﴾ [لقمان: ٢٥] والعبد يتحمل من مولاه ما لا يتحمله من غيره، فلو أنه عليه السلام قال ابتداء: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ لجوزوا أن يكون هذا كلام محمد، فلعلهم ما كانوا يتحملونه منه وكانوا يؤذونه. أما لما سمعوا قوله: ﴿قُلْ﴾ علموا أنه ينقل هذا التغليظ عن خالق السموات والأرض، فكانوا يتحملونه ولا يعظم تأذيهم به. **وخامسها**: أن قوله: ﴿قُلْ﴾ يوجب كونه رسولاً من عند الله، فكلما قيل له: ﴿قُلْ﴾ كان ذلك كالمنشور الجديد في

ثبوت رسالته، وذلك يقتضي المبالغة في تعظيم الرسول، فإن المَلِك إذا فوض مملكته إلى بعض عبيده، فإذا كان يكتب له كل شهر وسنة منشورًا جديدًا، دل ذلك على غاية اعتنائه بشأنه، وأنه على عزم أن يزيده كل يوم تعظيمًا وتشريفًا. **وسادسها**: أن الكفار لما قالوا: نعبد إلهك سنة، وتبعد آلهتنا سنة. فكأنه عليه السلام قال: «اسْتَأْمَرْتُ إِلَيْهِ فِيهِ»[(١)]. فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **وسابعها**: الكفار قالوا فيه السوء، فهو تعالى زجرهم عن ذلك، وأجابهم وقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] وكأنه تعالى قال: حين ذكروك بسوء، فأنا كنت المجيب بنفسي، فحين ذكروني بالسوء وأثبتوا لي الشركاء، فكن أنت المجيب: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **وثامنها**: أنهم سموك أبتر، فإن شئت أن تستوفي منهم القصاص، فاذكرهم بوصف ذم بحيث تكون صادقًا فيه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لكن الفرق أنهم عابوك بما ليس من فعلك وأنت تعيبهم بما هو فعلهم. **وتاسعها**: أن بتقدير أن تقول: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدونه، والكفار يقولون: هذا كلام ربك أم كلامك؟ فإن كان كلام ربك فربك يقول: أنا لا أعبد هذه الأصنام، ونحن لا نطلب هذه العبادة من ربك إنما نطلبها منك، وإن كان هذا كلامك فأنت قلت من عند نفسك: إني لا أعبد هذه الأصنام، فلمَ قلت: إن ربك هو الذي أمرك بذلك؟ أما لما قال: ﴿قُلْ﴾ سقط هذا الاعتراض لأن قوله: ﴿قُلْ﴾ يدل على أنه مأمور من عند الله تعالى بأن لا يعبدها ويتبرأ منها. **وعاشرها**: أنه لو أنزل قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لكان يقرؤها عليهم لا محالة، لأنه لا يجوز أن يخون في الوحي إلا أنه لما قال: ﴿قُلْ﴾ كان ذلك كالتأكيد في إيجاب تبليغ هذا الوحي إليهم، والتأكيد يدل على أن ذلك الأمر أمر عظيم. فبهذا الطريق تدل هذه الكلمة على أن الذي قالوه وطلبوه من الرسول أمر منكر في غاية القبح ونهاية الفحش. **الحادي عشر**: كأنه تعالى يقول: كانت التقية جائزة عند الخوف، أما الآن لما قوينا قلبك بقولنا: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] وبقولنا: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] فلا تبال بهم ولا تلتفت إليهم و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **الثاني عشر**: أن خطاب الله تعالى مع العبد من غير واسطة يوجب التعظيم، ألا ترى أنه تعالى ذكر من أقسام إهانة الكفار أنه تعالى لا يكلمهم، فلو قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لكان ذلك من حيث إنه خطاب مشافهة يوجب التعظيم، ومن حيث إنه وصف لهم بالكفر يوجب الإيذاء، فينجبر الإيذاء بالإكرام، أما لما قال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فحينئذٍ يرجع تشريف المخاطبة إلى محمد ﷺ، وترجع الإهانة الحاصلة لهم بسبب وصفهم بالكفر إلى الكفار، فيحصل فيه تعظيم الأولياء، وإهانة الأعداء، وذلك هو النهاية في الحسن. **الثالث عشر**: أن محمدًا عليه السلام كان منهم، وكان في غاية الشفقة عليهم والرأفة بهم، وكانوا يعلمون منه أنه شديد الاحتراز عن الكذب، والأب الذي يكون في غاية الشفقة بولده،

---

(١) أورده ابن حجر في (الفتح) (٨/ ٧٣٣) وقال: رواه ابن أبي حاتم، وفي إسناده أبو خلف عبد الله بن عيسى وهو ضعيف.

ويكون في نهاية الصدق والبعد عن الكذب ثم إنه يصف ولده بعيب عظيم، فالولد إن كان عاقلاً يعلم أنه ما وصفه بذلك مع غاية شفقته عليه إلا لصدقه في ذلك ولأنه بلغ مبلغًا لا يقدر على إخفائه، فقال تعالى: (قل يا محمد لهم: أيها الكافرون) ليعلموا أنك لما وصفتهم بذلك مع غاية شفقتك عليهم وغاية احترازك عن الكذب، فهم موصوفون بهذه الصفة القبيحة، فربما يصير ذلك داعيًا لهم إلى البراءة من هذه الصفة والاحتراز عنها. **الرابع عشر:** أن الإيذاء والايحاش من ذوي القربى أشد وأصعب من الغير، فأنت من قبيلتهم، ونشأت فيما بين أظهرهم فقل لهم: (يا أيها الكافرون) فلعله يصعب ذلك الكلام عليهم، فيصير ذلك داعيًا لهم إلى البحث والنظر والبراءة عن الكفر. **الخامس عشر:** كأنه تعالى يقول: ألسنا بيّنا في سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: ١-٣] وفي سورة الكوثر: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] وأتيت بالإيمان والأعمال الصالحات، بمقتضى قولنا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] بقي عليك التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وذلك هو أن تمنعهم بلسانك وبرهانك عن عبادة غير الله، فقل: قل يا أيها الكافرون. **السادس عشر:** كأنه تعالى يقول: يا محمد أنسيت أنني لما أخرت الوحي عليك مدة قليلة، قال الكافرون: إنه ودعه ربه وقلاه، فشق عليك ذلك غاية المشقة، حتى أنزلت عليك السورة، وأقسمت بالضحى والليل إذا سجى أنه ما ودعك ربك وما قلى. فلما لم تستجز أن أتركك شهرًا ولم يطب قلبك حتى ناديت في العالم بأنه ما ودعك ربك وما قلى، أفتستجيز أن تتركني شهرًا وتشتغل بعبادة آلهتهم، فلما ناديت بنفي تلك التهمة، فنادِ أنت أيضًا في العالم بنفي هذه التهمة وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **السابع عشر:** لما سألوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، فهو عليه السلام سكت ولم يقل شيئًا، لا لأنه جوَّز في قلبه أن يكون الذي قالوه حقًّا، فإنه كان قاطعًا بفساد ما قالوه، لكنه عليه السلام توقف في أنه بماذا يجيبهم؟ أبأن يقيم الدلائل العقلية على امتناع ذلك أو بأن يزجرهم بالسيف أو بأن ينزل الله عليهم عذابًا، فاغتنم الكفار ذلك السكوت وقالوا: إن محمدًا مال إلى ديننا!! فكأنه تعالى قال: يا محمد إن توقفك عن الجواب في نفس الأمر حق، ولكنه أوهم باطلاً، فتدارَكْ إزالة ذلك الباطل، وصَرِّح بما هو الحق وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الثامن عشر:** أنه عليه السلام لما قال له ربه ليلة المعراج: (أثنِ عليَّ) استولى عليه هيبة الحضرة الإلهية فقال: لا أحصي ثناء عليك. فوقع ذلك السكوت منه في غاية الحسن، فكأنه قيل له: إن سكتَّ عن الثناء رعاية لهيبة الحضرة فأطلق لسانك في مذمة الأعداء وقل يا أيها الكافرون حتى يكون سكوتك لله وكلامك لله، وفيه تقرير آخر وهو أن هيبة الحضرة سلبت عنك قدرة القول فقل ههنا حتى إن هيبة قولك تسلب قدرة القول عن هؤلاء الكفار. **التاسع عشر:** لو قال له: (لا تعبد ما يعبدون) لم يلزم منه أن يقول بلسانه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أما لما أمره بأن يقول بلسانه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يلزمه أن لا يعبد ما يعبدون إذ لو فعل ذلك لصار

كلامه كذبًا، فثبت أنه لما قال له: قل: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ فلزمه أن يكون منكرًا لذلك بقلبه ولسانه وجوارحه. ولو قال له: (لا تعبد ما يعبدون) لزمه تركه، أما لا يلزمه إظهار إنكاره باللسان، ومن المعلوم أن غاية الإنكار إنما تحصل إذا تركه في نفسه وأنكره بلسانه فقوله له: ﴿قُلۡ﴾ يقتضي المبالغة في الإنكار، فلهذا قال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، **العشرون:** ذِكر التوحيد ونفي الأنداد جنة للعارفين ونار للمشركين، فاجعل لفظك جنة للموحدين ونارًا للمشركين و﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ **الحادي والعشرون:** أن الكفار لما قالوا: (نعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة) سكت محمد فقال: إن شافهتهم بالرد تأذوا، وحصلت النفرة عن الإسلام في قلوبهم، فكأنه تعالى قال له: يا محمد لمَ سكت عن الرد؟! أما الطمع فيما يعدونك من قبول دينك، فلا حاجة بك في هذا المعنى إليهم، فإنا أعطينك الكوثر، وأما الخوف منهم فقد أزلنا عنك الخوف بقولنا: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] فلا تلتفت إليهم، ولا تبال بكلامهم، وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الثاني والعشرون:** أنسيت يا محمد أني قدمت حقك على حق نفسي، فقلت: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [البينه: ١] فقدمت أهل الكتاب في الكفر على المشركين لأن طعن أهل الكتاب فيك وطعن المشركين فيَّ، فقدمت حقك على حق نفسي وقدمت أهل الكتاب في الذم على المشركين، وأنت أيضًا هكذا كنت تفعل، فإنهم لما كسروا سنك قلت: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي»[(١)] ولما شغلوك يوم الخندق عن الصلاة قلت: «اللَّهُمَّ امْلأْ بُطُونَهُمْ نَارًا»[(٢)] فههنا أيضًا قَدِّم حقي على حق نفسك، وسواء كنت خائفًا منهم أو لست خائفًا منهم، فأظهر إنكار قولهم: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الثالث والعشرون:** كأنه تعالى يقول: قصة امرأة زيد واقعة حقيرة بالنسبة إلى هذه الواقعة، ثم إنني هناك ما رضيت منك أن تضمر في قلبك شيئًا ولا تظهره بلسانك، بل قلت لك على سبيل العتاب: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فإذا كنتُ لم أرض منك في تلك الواقعة الحقيرة إلا بالإظهار، وترك المبالاة بأقوال الناس، فكيف أرضى منك في هذه المسألة، وهي أعظم المسائل خطرًا بالسكوت؟! قل بصريح لسانك: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الرابع والعشرون:** يا محمد ألست قلت لك: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥١] ثم إني مع هذه القدرة راعيت جانبك وطيبت قلبك وناديت في العالمين بأني لا أجعل الرسالة مشتركة بينه وبين غيره، بل الرسالة له لا لغيره حيث قلت: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب (أم حسبت أن أصحاب الكهف) (٣/ ١٢٨٢) حديث رقم (٣٢٩٠) قال: حدثنا عمرو بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش... به، ومسلم في كتاب (الجهاد) باب (غزوة أحد) (٣/ ١٤١٧/ ١٧٩٢) قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش... به.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد) باب (الدعاء على المشركين بالزلزال) (٦/ ١٢٤) حديث رقم (٢٩١٣) من طريق عيسى... به، ومسلم في كتاب (المساجد) باب (التغليظ في تفويت صلاة العصر) (١/ ٢٠٢/ ٤٣٦) من طريق أبي أسامة... به، جميعًا (عيسى، أبو أسامة، يزيد بن هارون) عن هشام بن حسان... به.

ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فأنت مع علمك بأنه يستحيل عقلاً أن يشاركني غيري في المعبودية أَوْلى أن تنادي في العالمين بنفي هذه الشركة، فقل: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الخامس والعشرون:** كأنه تعالى يقول: القوم جاؤوك وأطمعوك في متابعتهم لك ومتابعتك لدينهم فسكتَّ عن الإنكار والرد، ألستُ أنا جعلتُ البيعة معك بيعة معي حيث قلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وجعلتُ متابعتك متابعة لي حيث قلت: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ثم إني ناديت في العالمين وقلت: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣] فصَرِّح أنت أيضًا بذلك، وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **السادس والعشرون:** كأنه تعالى يقول: ألست أرأف بك من الولد بولده، ثم العري والجوع مع الوالد أحسن من الشبع مع الأجانب، كيف والجوع لهم لأن أصنامهم جائعة عن الحياة عارية عن الصفات، وهم جائعون عن العلم عارون عن التقوى، فقد جربتني، ألم أجدك يتيمًا وضالاً وعائلاً، ألم نشرح لك صدرك، ألم أعطك بالصِّديق خزينة وبالفاروق هيبة وبعثمان معونة، وبعلي علمًا، ألم أَكُفَّ أصحاب الفيل حين حاولوا تخريب بلدتك، ألم أَكْفِ أسلافك رحلة الشتاء والصيف، ألم أعطك الكوثر، ألم أضمن أن خصمك أبتر، ألم يقل جدك في هذه الأصنام بعد تخريبها: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] فصرح بالبراءة عنها وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **السابع والعشرون:** كأنه تعالى يقول: يا محمد ألستُ قد أنزلت عليك: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] ثم إن واحدًا لو نسبك إلى والدين لغضبت ولأظهرت الإنكار ولبالغت فيه، حتى قلت: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أُولَدْ مِنْ سِفَاحٍ» فإذا لم تسكت عند التشريك في الولادة، فكيف سكت عند التشريك في العبادة؟! بل أظهِر الإنكار، وبالِغ في التصريح به، وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الثامن والعشرون:** كأنه تعالى يقول: يا محمد ألست قد أنزلت عليك: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] فحكمت بأن مَن سَوَّى بين الإله الخالق وبين الوثن الجماد في المعبودية لا يكون عاقلاً بل يكون مجنونًا، ثم إني أقسمت وقلت: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١، ٢] والكفار يقولون: إنك مجنون، فصَرِّح برد مقالتهم فإنها تفيد براءتي عن عيب الشرك، وبراءتك عن عيب الجنون وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **التاسع والعشرون:** أن هؤلاء الكفار سموا الأوثان آلهة، والمشاركة في الاسم لا توجب المشاركة في المعنى، ألا ترى أن الرجل والمرأة يشتركان في الإنسانية حقيقة، ثم القيمية كلها حظ الزوج لأنه أعلم وأقدر، ثم من كان أعلم وأقدر كان له كل الحق في القيمية، فمن لا قدرة له ولا علم ألبتة كيف يكون له حق في القيومية؟! بل ههنا شيء آخر: وهو أن امرأة لو ادعاها رجلان فاصطلحا عليها لا يجوز، ولو أقام كل واحد منهما بينة على أنها زوجته لم يقض لواحد منهما، والجارية بين اثنين لا تحل لواحد منهما، فإذا لم يجز حصول زوجة لزوجين، ولا أمة بين موليين في حل الوطء، فكيف

يعقل عابد واحد بين معبودين؟! بل من جوز أن يصطلح الزوجان على أن تحل الزوجة لأحدهما شهرًا، ثم الثاني شهرًا آخر، كان كافرًا، فمن جوز الصلح بين الإله والصنم ألا يكون كافرًا فكأنه تعالى يقول لرسوله: إن هذه المقالة في غاية القبح فصَرِّح بالإنكار وقل: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الثلاثون:** كأنه تعالى يقول: أنسيت أني لما خيرت نساءك حين أنزلت عليك: ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩] ثم خشيتَ من عائشة أن تختار الدنيا، فقلتَ لها: لا تقولي شيئًا حتى تستأمري أبويك. فقالت: أفي هذا أستأمر أبوي بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة!! فناقصة العقل ما توقفت فيما يخالف رضاي، أتتوقف فيما يخالف رضاي وأمري مع أني جبار السموات والأرض: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **الحادي والثلاثون:** كأنه تعالى يقول: يا محمد ألست أنت الذي قلت: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوقَفَنَّ مَوَاقِفَ التُّهَم»، وحتى أن بعض المشايخ قال لمريده الذي يريد أن يفارقه: لا تخاف السلطان. قال: ولِمَ؟ قال: لأنه يوقع الناس في أحد الخطأين: إما أن يعتقدوا أن السلطان متدين؛ لأنه يخالطه العالم الزاهد، أو يعتقدوا أنك فاسق مثله، وكلاهما خطأ، فإذا ثبت أنه يجب البراءة عن موقف التهم فسكوتك يا محمد عن هذا الكلام يجر إليك تهمة الرضا بذلك، لاسيما وقد سبق أن الشيطان ألقى فيما بين قراءتك (تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى) فأزل عن نفسك هذه التهمة وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الثاني والثلاثون:** الحقوق في الشاهد نوعان: حق من أنت تحت يده وهو مولاك، وحق من هو تحت يدك وهو الولد، ثم أجمعنا على أن خدمة المولى مقدمة على تربية الولد، فإذا كان حق المولى المَجازي مقدمًا، فبأن يكون حق المولى الحقيقي مقدمًا كان أَوْلى، ثم روي أن عليًا عليه السلام استأذن الرسول ﷺ في التزوج بابنة أبي جهل فضجر وقال: «**لا آذن، لا آذن، لا آذن، إن فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما يؤذيها، ويسرني ما يسرها، والله لا يجمع بين بنت عدو الله، وبنت حبيب الله**»[1]، فكأنه تعالى يقول: صرحتَ هناك بالرد وكررته على سبيل المبالغة رعاية لحق الولد، فههنا أَوْلى أن تصرح بالرد وتكرره رعاية لحق المولى فقل: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ولا أجمع في القلب بين طاعة الحبيب وطاعة العدو. **الثالث والثلاثون:** يا محمد ألست قلت لعمر: رأيتُ قصرًا في الجنة، فقلت: لمن؟ فقيل: لفتى من قريش، فقلت: من هو؟ فقالوا: عمر. «**فخشيت غيرتك فلم أدخلها**» حتى قال عمر: أو أغار عليك يا رسول الله[2]، فكأنه تعالى قال: خشيت غيرة عمر فما دخلت قصره، أفما تخشى غيرتي في أن تدخل قلبك طاعة غيري، ثم هناك

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (النكاح) باب (ذب الرجل عن ابنته) (٩/ ٢٣٨) حديث رقم (٥٢٣٠) ومسلم في كتاب (فضائل الصحابة) (٤/ ٩٣/ ١٩٠٢) جميعًا من طريق الليث... به.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (بدء الوحي) باب (الوضوء في المنام) (٦/ ٢٥٧٧) حديث رقم (٦٦٢٢) ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٦٣/ ٢٣٩٥) كلاهما من طريق ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة... به.

أظهرت الامتناع، فههنا أيضًا أظهِر الامتناع وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **الرابع والثلاثون:** أترى أن نعمتي عليك دون نعمة الوالدة، ألم أربك؟ ألم أخلقك؟ ألم أرزقك؟ ألم أعطك الحياة والقدرة والعقل والهداية والتوفيق؟ ثم حين كنتَ طفلاً عديم العقل وعرفت تربية الأم، فلو أخذتك امرأة أجمل وأحسن وأكرم من أمك لأظهرت النفرة ولبكيت، ولو أعطتك الثدي لسددت فمك تقول: لا أريد غير الأم؛ لأنها أول المنعم عليَّ، فههنا أَوْلى أن تُظهر النفرة فتقول: لا أعبد سوى ربي لأنه أول منعم عليَّ فقل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ **الخامس والثلاثون:** نعمة الإطعام دون نعمة العقل والنبوة، ثم قد عرفت أن الشاة والكلب لا ينسيان نعمة الإطعام ولا يميلان إلى غير من أطعمهما، فكيف يليق بالعاقل أن ينسى نعمة الإيجاد والإحسان، فكيف في حق أفضل الخلق: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ **السادس والثلاثون:** مذهب الشافعي أنه يثبت حق الفرقة بواسطة الإعسار بالنفقة، فإذا لم تجد من الأنصار تربية حصلت لك حق الفرقة لو كنت متصلاً بها، لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا؟ فبتقدير أن كنت متصلاً بها، كان يجب أن تنفصل عنها وتتركها، فكيف وما كنت متصلاً بها أيليق بك أن تقرب الاتصال بها قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. **السابع والثلاثون:** هؤلاء الكفار لفرط حماقتهم ظنوا أن الكثرة في الإلهية كالكثرة في المال يزيد به الغنى، وليس الأمر كذلك، بل هو كالكثرة في العيال تزيد به الحاجة فقل يا محمد: لي إله واحد أقوم له في الليل وأصوم له في النهار، ثم بعد لم أتفرغ من قضاء حق ذرة من ذرات نعمه، فكيف ألتزم عبادة آلهة كثيرة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ **الثامن والثلاثون:** أن مريم عليها السلام لما تمثل لها جبريل عليه السلام ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨] فاستعاذت أن تميل إلى جبريل دون الله، أفتستجيز مع كمال رجوليتك أن تميل إلى الأصنام؟! ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ **التاسع والثلاثون:** مذهب أبي حنيفة أنه لا يثبت حق الفرقة بالعجز عن النفقة ولا بالعنة الطارئة، يقول: لأنه كان قيمًا فلا يحسن الإعراض عنه مع أنه تعيب، فالحق سبحانه يقول: كنت قيمًا ولم أتعيب، فكيف يجوز الإعراض عني: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ **الأربعون:** هؤلاء الكفار كانوا معترفين بأن الله خالقهم: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال في موضع آخر: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٤٠] فكأنه تعالى يقول: هذه الشركة إما أن تكون مزارعة وذلك باطل؛ لأن البذر مني والتربية والسقي مني، والحفظ مني، فأي شيء للصنم، أو شركة الوجوه وذلك أيضًا باطل أترى أن الصنم أكثر شهرة وظهورًا مني؟! أو شركة الأبدان وذلك أيضًا باطل؛ لأن ذلك يستدعي الجنسية، أو شركة العنان، وذلك أيضًا باطل؛ لأنه لا بد فيه من نصاب، فما نصاب الأصنام، أو يقول: ليس هذه من باب الشركة لكن الصنم يأخذ بالتغلب نصيبًا من الملك، فكأن الرب يقول: ما أشد جهلكم إن هذا الصنم أكثر عجزًا من الذبابة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾ [الحج:

٧٣] فأنا أخلق البذر ثم ألقيه في الأرض، فالتربية والسقي والحفظ مني، ثم إن من هو أعجز من الذبابة يأخذ بالقهر والتغلب نصيبًا مني، ما هذا بقول يليق بالعقلاء: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **الحادي والأربعون:** أنه لا ذرة في عالم المحدثات إلا وهي تدعو العقول إلى معرفة الذات والصفات، وأما الدعاة إلى معرفة أحكام الله فهم الأنبياء عليهم السلام، ولما كان كل بق وبعوضة داعيًا إلى معرفة الذات والصفات قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، ذلك لأن هذه البعوضة بحسب حدوث ذاتها وصفاتها تدعو إلى قدرة الله بحسب تركيبها العجيب تدعو إلى علم الله، وبحسب تخصيص ذاتها وصفاتها بقدر معين تدعو إلى إرادة الله، فكأنه تعالى يقول: مثل هذا الشيء كيف يتسحيا منه؟! روي أن عمر رضي الله عنه كان في أيام خلافته دخل السوق فاشترى كرشًا وحمله بنفسه، فرآه علي من بعيد فتنكب علي عن الطريق فاستقبله عمر وقال له: لمَ تنكبت عن الطريق؟ فقال علي: حتى لا تستحي. فقال: وكيف أستحي من حمل ما هو غذائي؟! فكأنه تعالى يقول: إذا كان عمر لا يستحي من الكرش الذي هو غذاؤه في الدنيا، فكيف أستحي عن ذكر البعوض الذي يعطيك غذاء دينك؟! ثم كأنه تعالى يقول: يا محمد إن نمروذ لما ادعى الربوبية صاح عليه البعوض بالإنكار، فهؤلاء الكفار لما دعوك إلى الشرك أفلا تصيح عليهم، أفلا تصرح بالرد عليهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وإن فرعون لما ادعى الإلهية فجبريل ملأ فاه من الطين، فإن كنتَ ضعيفًا فلستَ أضعف من بعوضة نمروذ، وإن كنت قويًّا فلست، أقوى من جبريل، فأظهِر الإنكار عليهم و: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **الثاني والأربعون:** كأنه تعالى يقول: يا محمد قل بلسانك: (لا أعبد ما تعبدون) واتركه قرضًا عليَّ فإني أقضيك هذا القرض على أحسن الوجوه، ألا ترى أن النصراني إذا قال: (أشهد أن محمدًا رسول الله) فأقول: أنا لا أكتفي بهذا ما لم تصرح بالبراءة عن النصرانية، فلما أوجبت على كل مكلف أن يتبرأ بصريح لسانه عن كل دين يخالف دينك، فأنتَ أيضًا أوجِب على نفسك أن تصرح برد كل معبود غيري فقل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ **الثالث والأربعون:** أن موسى عليه السلام كان في طبعه الخشونة، فلما أُرسل إلى فرعون قيل له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] وأما محمد عليه السلام فلما أُرسل إلى الخلق أُمر بإظهار الخشونة تنبيهًا على أنه في غاية الرحمة، فقيل له: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ قد تقدم القول فيها في مواضع، والذي نزيده ههنا أنه روي عن علي عليه السلام أنه قال: (يا) نداء النفس و(أي) نداء القلب، و(ها) نداء الروح، وقيل: (يا) نداء الغائب و(أي) للحاضر، و(ها) للتنبيه، كأنه يقول: أدعوك ثلاثًا ولا تجيبني مرة، ما هذا إلا لجهلك الخفي. ومنهم من قال: إنه تعالى جمع بين (يا) الذي هو للبعيد، و(أي) الذي هو

للقريب، كأنه تعالى يقول: معاملتك معي وفرارك عني يوجب البعد البعيد، لكن إحساني إليك ووصول نعمتي إليك توجب القرب القريب: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وإنما قدم (يا) الذي يوجب البعد على (أي) الذي يوجب القرب، كأنه يقول: التقصير منك والتوفيق مني، ثم ذكرها بعد ذلك لأن (يا) يوجب البعد الذي هو كالموت و(أي) يوجب القرب الذي هو كالحياة، فلما حصلا حصلت حالة متوسطة بين الحياة والموت، وتلك الحالة هي النوم، والنائم لا بد وأن ينبه و(ها) كلمة تنبيه، فلهذا السبب ختمت حروف النداء بهذا الحرف.

المسألة الثانية: روي في سبب نزول هذه السورة أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف - قالوا لرسول الله: تعالَ حتى نعبد إلهك مدة، وتعبد آلهتنا مدة، فيحصل مصلحة بيننا وبينك، وتزول العداوة من بيننا، فإن كان أمرك رشيدًا أخذنا منه حظًا، وإن كان أمرنا رشيدًا أخذت منه حظًا. فنزلت هذه السورة ونزل أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] فتارة وصفهم بالجهل وتارة بالكفر، واعلم أن الجهل كالشجرة، والكفر كالثمرة، فلما نزلت السورة وقرأها على رؤوسهم شتموه وأيسوا منه،

وههنا سؤالات:

السؤال الأول: لمَ ذكرهم في هذه السورة بالكافرين، وفي الأخرى بالجاهلين؟ **الجواب**: لأن هذه السورة بتمامها نازلة فيهم، فلا بد وأن تكون المبالغة ههنا أشد، وليس في الدنيا لفظ أشنع ولا أبشع من لفظ الكافر، وذلك لأنه صفة ذم عند جميع الخلق، سواء كان مطلقًا أو مقيدًا، أما لفظ الجهل فإنه عند التقييد قد لا يذم، كقوله عليه السلام في علم الأنساب: «**عِلْمٌ لاَ يَنْفَعُ وَجَهْلٌ لاَ يَضُرُّ**».

السؤال الثاني: لمَ قال تعالى في سورة (لم تحرم): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التحريم: ٧]، ولم يذكر قل، وههنا ذكر قل، وذكره باسم الفاعل. **والجواب**: الآية المذكورة في سورة (لمَ تحرم) إنما تقال لهم يوم القيامة، وثمة لا يكون الرسول رسولاً إليهم، فأزال الواسطة، وفي ذلك الوقت يكونون مطيعين لا كافرين. فلذلك ذكره بلفظ الماضي، وأما ههنا فهم كانوا موصوفين بالكفر، وكان الرسول رسولاً إليهم، فلا جرم قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

السؤال الثالث: قوله ههنا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ خطاب مع الكل أو مع البعض؟ **الجواب**: لا يجوز أن يكون قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ خطابًا مع الكل؛ لأن في الكفار من يعبد الله كاليهود والنصارى، فلا يجوز أن يقول لهم: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ولا يجوز أيضًا أن يكون قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ خطابًا مع الكل؛ لأن في الكفار من آمن وصار بحيث يعبد الله، فإذن وجب أن يقال: إن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ خطاب مشافهة مع أقوام مخصوصين وهم الذين قالوا: نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة. والحاصل أنا لو حملنا الخطاب على العموم دخل التخصيص، ولو حملنا على أنه خطاب مشافهة لم يلزمنا ذلك، فكان حمل الآية على هذا المحمل أَوْلى.

قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في هذه الآية قولان: **أحدهما**: أنه لا تكرار فيها. **والثاني**: أن فيها تكرارًا.

أما الأول فتقريره من وجوه: **أحدها**: أن الأول للمستقبل، والثاني للحال، والدليل على أن الأول للمستقبل أن (لا) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، أن ترى أن لن تأكيد فيما ينفيه لا، وقال الخليل في لن: أصله لا أن. إذا ثبت هذا فقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهي. ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أي ولست في الحال بعابد معبودكم ولا أنتم في الحال بعابدين لمعبودي. **الوجه الثاني**: أن تقلب الأمر فتجعل الأول للحال والثاني للاستقبال، والدليل على أن قول: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ للاستقبال أنه رفع لمفهوم قولنا: (أنا عابد ما عبدتم) ولا شك أن هذا للاستقبال بدليل أنه لو قال: (أنا قاتل زيدًا) فُهم منه الاستقبال. **الوجه الثالث**: قال بعضهم: كل واحد منهما يصلح للحال وللاستقبال، ولكنا نخص أحدها بالحال، والثاني بالاستقبال دفعًا للتكرار، فإن قلنا: إنه أخبر عن الحال ثم عن الاستقبال، فهو الترتيب، وإن قلنا: أخبر أولاً عن الاستقبال، فلأنه هو الذي دعوه إليه، فهو الأهم فبدأ به، **فإن قيل**: ما فائدة الإخبار عن الحال وكان معلومًا أنه ما كان يعبد الصنم، وأما الكفار فكانوا يعبدون الله في بعض الأحوال؟ **قلنا**: أما الحكاية عن نفسه فلئلا يتوهم الجاهل أنه يعبدها سرًّا خوفًا منها أو طمعًا إليها، وأما نفيه عبادتهم فلأن فعل الكافر ليس بعبادة أصلاً **الوجه الرابع وهو اختيار أبي مسلم**: أن المقصود من الأولين المعبود و(ما) بمعنى الذي، فكأنه قال: لا أعبد الأصنام ولا تعبدون الله، وأما في الأخيرين فـ(ما) مع الفعل في تأويل المصدر، أي لا أعبد عبادتكم المبنية على الشرك وترك النظر، ولا أنتم تعبدون عبادتي المبنية على اليقين، فإن زعمتم أنكم تعبدون إلهي، كان ذلك باطلاً لأن العبادة فعل مأمور به وما تفعلونه أنتم فهو منهي عنه، وغير مأمور به. **الوجه الخامس**: أن تُحمل الأولى على نفي الاعتبار الذي ذكروه، والثانية على النفي العام المتناول لجميع الجهات، فكأنه أولاً قال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ رجاء أن تعبدوا الله: ولا أنتم تعبدون الله رجاء أن أعبد أصنامكم، ثم قال: ولا أنا عابد صنمكم لغرض من الأغراض، ومقصود من المقاصد ألبتة بوجه من الوجوه، ولا أنتم عابدون ما أعبد بوجه من الوجوه، واعتبار من الاعتبارات، ومثاله من يدعو غيره إلى الظلم لغرض التنعيم، فيقول: لا أظلم لغرض التنعم بل لا أظلم أصلا لا لهذا الغرض ولا لسائر الأغراض.

القول الثاني وهو أن نسلّم حصول التكرار: وعلى هذا القول العذر عنه من ثلاثة أوجه: **الأول**: أن

التكرير يفيد التوكيد، وكلما كانت الحاجة إلى التأكيد أشد كان التكرير أحسن، ولا موضع أحوج إلى التأكيد من هذا الموضع؛ لأن أولئك الكفار رجعوا إلى رسول الله ﷺ في هذا المعنى مرارًا، وسكت رسول الله عن الجواب، فوقع في قلوبهم أنه عليه السلام قد مال إلى دينهم بعض الميل، فلا جرم دعت الحاجة إلى التأكيد والتكرير في هذا النفي والإبطال. **الوجه الثاني:** أنه كان القرآن ينزل شيئًا بعد شيء، وآية بعد آية جوابًا عما يسألون فالمشركون قالوا: استلم بعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك. فأنزل الله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۞ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ ثم قالوا بعد مدة تعبد آلهتنا شهرًا ونعبد إلهك شهرًا فانزل الله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۞ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ ولما كان هذا الذي ذكرناه محتملاً لم يكن التكرار على هذا الوجه مضرًّا ألبتة. **الوجه الثالث:** أن الكفار ذكروا تلك الكلمة مرتين: تعبد آلهتنا شهرًا ونعبد إلهك شهرًا وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة.

فأتى الجواب على التكرير على وفق قولهم، وهو ضرب من التهكم، فإن من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد يجازى بدفع تلك الكلمة على سبيل التكرار استخفافًا به واستحقارًا لقوله.

المسألة الثانية: في الآية سؤال وهو أن كلمة: (ما) لا تتناول من يعلم فهب أن معبودهم كان كذلك فصح التعبير عنه بلفظ (ما) لكن معبود محمد عليه الصلاة والسلام هو أعلم العالمين فكيف قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾؟ أجابوا عنه من وجوه: **أحدها:** أن المراد منه الصفة، كأنه قال: لا أعبد الباطل وأنتم لا تعبدون الحق. **وثانيها:** أن (ما) مصدرية في الجملتين، كأنه قال: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في المستقبل. ثم قال ثانيًا لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في الحال. **وثالثها:** أن يكون (ما) بمعنى الذي وحينئذٍ يصح الكلام. **ورابعها:** أنه لما قال أولاً: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ حمل الثاني عليه ليتسق الكلام كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠].

المسألة الثالثة: احتج أهل الجبر بأنه تعالى أخبر عنهم مرتين بقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ والخبر الصدق عن عدم الشيء يضاد وجود ذلك الشي، فالتكليف بتحصيل العبادة مع وجود الخبر الصدق بعدم العبادة تكليف بالجمع بين الضدين.

واعلم أنه بقي في الآية سؤالات:

السؤال الأول: أليس أن ذكر الوجه الذي لأجله تقبح عبادة غير الله كان أَوْلى من هذا التكرير؟

الجواب: بل قد يكون التأكيد والتكرير أَوْلى من ذكر الحجة، إما لأن المخاطب بليد ينتفع بالمبالغة والتكرير ولا ينتفع بذكر الحجة، أو لأجل أن محل النزاع يكون في غاية الظهور فالمناظرة في مسألة الجبر والقدر حسنة، أما القائل بالصنم فهو إما مجنون يجب شده أو عاقل معاند فيجب قتله، وإن لم يقدر على قتله فيجب شتمه والمبالغة في الإنكار عليه كما في هذه الآية.

السؤال الثاني: أن أول السورة اشتمل على التشديد، وهو النداء بالكفر والتكرير، وآخرها على

اللطف والتساهل، وهو قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فكيف وجه الجمع بين الأمرين؟ **الجواب:** كأنه يقول: إني قد بالغت في تحذيركم على هذا الأمر القبيح وما قصرت فيه، فإن لم تقبلوا قولي، فاتركوني سواء بسواء.

السؤال الثالث: لما كان التكرار لأجل التأكيد والمبالغة فكان ينبغي أن يقول: لن أعبد ما تعبدون؛ لأن هذا أبلغ، ألا ترى أن أصحاب الكهف لما بالغوا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: ١٤] **والجواب:** المبالغة إنما يحتاج إليها في موضع التهمة، وقد علم كل أحد من محمد عليه السلام أنه ما كان يعبد الصنم قبل الشرع، فكيف يعبده بعد ظهور الشرع؟! بخلاف أصحاب الكهف فإنه وجد منهم ذلك فيما قبل.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: لكم كفركم بالله ولي التوحيد والإخلاص له، **فإن قيل:** فهل يقال: إنه أذن لهم في الكفر. **قلنا:** كلا فإنه عليه السلام ما بُعث إلا للمنع من الكفر فكيف يأذن فيه، ولكن المقصود منه أحد أمور: **أحدها:** أن المقصود منه التهديد، كقوله ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] **وثانيها:** كأنه يقول: إني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فاتركوني ولا تدعوني إلى الشرك. **وثالثها:** ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ فكونوا عليه إن كان الهلاك خيرًا لكم ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ لأني لا أرفضه. **القول الثاني في تفسير الآية:** أن الدين هو الحساب، أي لكم حسابكم ولي حسابي، ولا يرجع إلى كل واحد منا من عمل صاحبه أثر ألبتة. **القول الثالث:** أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني. وحسبهم جزاء دينهم وبالاً وعقابًا كما حسبك جزاء دينك تعظيمًا وثوابًا. **القول الرابع:** الدين: العقوبة: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] يعني الحد، فلكم العقوبة من ربي، ولي العقوبة من أصنامكم، لكن أصنامكم جمادات، فأنا لا أخشى عقوبة الأصنام، وأما أنتم فيحق لكم عقلاً أن تخافوا عقوبة جبار السموات والأرض. **القول الخامس:** الدين: الدعاء، فادعو الله مخلصين له الدين، أي لكم دعاؤكم ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤] ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] ثم ليتها تبقى على هذه الحالة فلا يضرونكم، بل يوم القيامة يجدون لسانًا فيكفرون بشرككم، وأما ربي فيقول: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الشورى: ٢٦] ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] **القول السادس:** الدين العادة، قال الشاعر:

يَقُولُ لَهَا وَقَدْ دَارَتْ وَضِينِي ... أَهَذَا دِينُهَا أَبَدًا وَدِينِي[1]

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الوافر للشاعر المثقب العبدي وهو العائذ بن محصن بن ثعلبة، من بني عبد القيس، من ربيعة، ٠٠٠- ٣٦ق.هـ/ ٥٥٣- ٥٨٧م، شاعر جاهلي، من أهل البحرين، اتصل بالملك عمرو ابن هند، وله فيه مدائح، ومدح النعمان بن المنذر، في شعره حكمة ورقة.

معناه لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم ومن الشياطين، ولي عادتي المأخوذة من الملائكة والوحي، ثم يبقى كل واحد منا على عادته، حتى تلقوا الشياطين والنار، وألقى الملائكة والجنة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ يفيد الحصر، ومعناه لكم دينكم لا لغيركم، ولي ديني لا لغيري، وهو إشارة إلى قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩] أي أنا مأمور بالوحي والتبليغ، وأنتم مأمورون بالامتثال والقبول، فأنا لمافعلت ما كُلفت به خرجت من عهدة التكليف، وأما إصراركم على كفركم فذلك مما لا يرجع إليَّ منه ضرر ألبتة.

المسألة الثانية: جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتُمثل به بل ليُتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه.

والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم، وصلى الله على سيدنا، وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة «الكافرون»

وهي مكيةٌ في قول ابنِ مسعود والحسن وعِكرمة. ومدنِيةٌ في أحدِ قولي ابنِ عباسٍ وقتادةَ والضحَّاك[1]. وهي ستُّ آياتٍ.

وفي الترمذيِّ من حديثِ أنسٍ: «أنَّها تَعْدِلُ ثلثَ القرآن»[2]. وفي كتاب «الرد» لأبي بكر الأنباريِّ: أخبرنا عبد الله بن ناجية، قال: حدَّثنا يوسف، قال: حدَّثنا القعنبيُّ وأبو نعيم، عن موسى بن وَرْدان، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تَعدِلُ ربعَ القرآن»[3]. ورواه موقوفاً عن أنس.

وخرَّج الحافظ أبو محمد عبدُ الغنيِّ بنُ سعيد عن ابن عمر قال: صلَّى النبيُّ ﷺ بأصحابه صلاةَ الفجرِ في سفر، فقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم قال: «قرأتُ بكم ثلثَ القرآنِ ورُبعَه»[4].

وروى جُبير بن مُطعِم أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أتحبُّ يا جبيرُ إذا خرجتَ سفَرًا أن تكون من أَمْثَلِ أصحابِك هيئةً وأكثرِهم زاداً»؟ قلتُ: نعم. قال: «فاقرأ هذه السورَ الخمسَ؛ من أوّل «قل يا أيها الكافرون ـ إلى ـ قل أعوذُ بربِّ الناس»، وافتتِحْ قراءتَك ببسم الله الرحمن الرحيم». قال: فوالله لقد كنتُ غنيًّا[5] كثير المالِ، إذا سافرتُ أكونُ أَبَذَّهم هَيئةً، وأقلَّهم زاداً، فمذ قرأتهنَّ صرتُ مِن أحسنهم هيئةً، وأكثرِهم زاداً، حتى أرجعَ من سفري ذلك[6].

وقال فَرْوة بن نَوْفل الأشجعيّ: قال رجل للنبيّ ﷺ: أوصني. قال: «اقرأ عند

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٥٧ .

(٢) لم نقف على هذا الحديث، والذي في سنن الترمذي: ربع القرآن، وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٩٣) و(٢٨٩٥)، وسلف ص ١٤٦ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (٨٥٤)، وابن عبد البر في التمهيد ٧/ ٢٥٨ و٢٦٠ .

(٥) في النسخ: غير، والمثبت من المصادر.

(٦) أخرجه أبو يعلى (٧٤١٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٤ : رواه أبو يعلى وفيه مَن لم أعرفهم. وذكره الحافظ في المطالب العالية ٣/ ٣٩٨ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠٦ ونسباه لأبي يعلى.

منامك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فإنها براءة من الشرك». خرّجه أبو بكر الأنباريّ وغيره[١].

وقال ابن عباس: ليس في القرآن أشدُّ غيظاً لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك.

وقال الأصمعيّ: كان يقال لـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ المقشقِشتان، أي: أنهما تُبرئان من النفاق. وقال أبو عبيدة: كما يُقَشْقِشُ الهِناء الجربَ فيبرئُهُ. وقال ابن السكيت: يقال لِلقَرح والجُدَريّ إذا يبِس وتقرَّف، وللجَرَب في الإبل إذا قَفَل: قد تَوَسَّف جلدُه، وتقشّر جِلده، وتَقَشْقَش جِلدُه[٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾

ذكر ابن إسحاقَ وغيره عن ابن عباس: أن سببَ نزولها أن الوليدَ بن المغيرة، والعاصَ بن وائل، والأسودَ بن المُطَّلب[٣]، وأُميةَ بن خَلَف؛ لَقُوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هَلُمَّ فلتعبدْ ما نعبد، ونَعْبد ما تَعْبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كلِّه، فإن كان الذي جئتَ به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظِّنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنتَ قد شَرِكتنا في أمرنا، وأخذتَ بحظِّك منه، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: إنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لو اسْتَلَمْتَ بعضَ هذه الآلهة لَصدَّقناك، فنزل جبريلُ على النبيِّ ﷺ بهذه السورة، فيئسوا منه، وآذوه، وآذَوا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٠٧)، وأبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي بعد الحديث (٣٤٠٣) بنحوه. والرجل الذي قال النبي ﷺ: أوصني، هو نوفل الأشجعي أبو فروة رضي الله عنهما.

(٢) الصحاح (قشش).

(٣) في النسخ والنكت والعيون ٦/ ٣٥٧ (والكلام منه دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما): الأسود بن عبد المطلب، والخبر في السيرة النبوية ١/ ٣٦٢، وأسباب النزول للواحدي ص ٥٠٥ ـ دون نسبة ـ وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٠٣، وتاريخ الطبري ٢/ ٣٣٧ ونسبه لسعيد بن مينا. والمثبت من هذه المصادر.

أصحابَه[١]. والألفُ واللامُ ترجع إلى معنى المعهود وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفةً لأيّ؛ لأنها مُخاطبة لمن سبق في علم الله تعالى أنه سيموت على كُفره، فهي من الخُصوص الذي جاء بلفظ العموم. ونحوه عن الماورديّ[٢]: نزلت جواباً، وعَنَى بالكافرينَ قوماً مُعَيَّنين، لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمنَ فعبد الله، ومنهم من مات أو قُتِل على كُفره، وهم المُخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون.

قال أبو بكر بن الأنباريّ: وقرأ مَن طعن في القرآن: «قُلْ لِلذين كَفَروا لا أَعْبد ما تَعْبُدون» وزعَم أن ذلك هو الصواب، وذلك افتراءٌ على ربِّ العالمين، وتضعيفٌ لمعنى هذه السورة، وإبطالُ ما قصده الله من أن يُذِلَّ نبيُّه المشركين[٣] بخطابه إيَّاهم بهذا الخطاب الزرِيّ[٤]، وإلزامهم ما يأنَفُ منه كلُّ ذي لُبٍّ وحِجًا. وذلك أن الذي يدَّعيه من اللفظ الباطل، قراءتنا تشتمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلاً ليس عندهم في باطلهم وتحريفِهم. فمعنى قراءتنا: قل للذين كفروا: يا أيها الكافرون، دليلُ صحة هذا: أن العربيّ إذا قال لمخاطبه: قل لزيد: أَقْبِلْ إلينا، فمعناه: قل لزيد: يا زيدُ، أَقْبِلْ إلينا. فقد وقعت قراءتُنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسنُ لفظٍ وأبلغُ معنى؛ إذ كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا[٥] يعتمدهم في ناديهم، فيقول لهم: «يا أيها الكافرون» وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنْسبوا إلى الكُفر، ويُدخَلوا في جُملة أهله إلَّا وهو محروسٌ ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يَدٌ، أو تقع به من جهتهم أَذِية. فمن لم يقرأ «قُلْ يا أيُّها الكافرون» كما أنزلها الله، أسقط آيةً لرسول الله ﷺ. وسبيلُ أهل الإسلام ألا يُسارعوا إلى مِثْلها، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه التي منحه الله إيَّاها، وشرَّفه بها.

وأما وجهُ التكرار فقد قيل: إنه للتأكيد في قَطْع أطماعهم؛ كما تقول: والله، لا

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر ـ كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠٤ ـ وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥٣٥ دون نسبة.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٣٥٧.

(٣) في (م): للمشركين، والمثبت من النسخ الخطية.

(٤) في (د): الرديء.

(٥) قوله: لا، ليس في (د) و(م).

أَفعلُ كذا، ثم والله لا أَفعلُه.

قال أكثرُ أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التَّكرار إرادةَ التأكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادةَ التخفيف والإيجاز[1]؛ لأن خُروجَ الخطيب والمتكلِّم من شيء إلى شيء، أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد؛ قال الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥] و﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]. كل هذا على التأكيد.

وقد يقول القائل: اِرْمِ اِرْمِ، اعجَلْ اعجَلْ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «فلا آذنُ، ثم لا آذنُ، إنما فاطمةُ بَضْعةٌ مني» خرَّجه مسلم[2].

وقال الشاعر:

هــلا ســألــتَ جــمــوعَ كِــنْــ ... ــدَةَ يــومَ ولَّــوْا أَيْــنَ أَيْــنَــا[3]

وقال آخر:

يــا لَــبَــكْــرٍ أَنْــشِــروا لــي كُــلَــيْــبــاً ... يــا لَــبَــكْــرٍ أَيــنَ أيــنَ الــفِــرارُ[4]

وقال آخر:

يــا عــلــقــمَــهْ يــا عــلــقــمَــهْ يــا عــلــقــمَــهْ ... خــيــرَ تــمــيــم كُــلِّــهــا وأَكْــرَمَــهْ[5]

وقال آخر:

يــا أَقــرعُ بــنَ حــابــسٍ يــا أَقْــرَعُ ... إنــكَ إنْ يُــصْــرَع أَخــوكَ تُــصْــرَعُ[6]

وقال آخر:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٥ .

(٢) في صحيحه (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة ﷺ، وهو في مسند أحمد (١٨٩٢٦).

(٣) البيت لعَبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص ١٤٢ .

(٤) البيت لمهلهِل، وهو في الكتاب ٢/ ٢١٥ ، والخزانة ٢/ ١٦٢ .

(٥) لم نقف على قائله، وذكره السمين الحلبي في الدر المصون ١١/ ١٣٣ .

(٦) سلف ٥/ ٢٨٢ .

أَلَا يا اسلَمي ثم اسلَمِي ثُمَّتَ اسْلَمي ثَـلاثُ تَـحِـيَّـاتٍ وإنْ لَـمْ تَـكَـلَّـمـي[١]

ومثله كثير. وقيل: هذا على مطابقة قولهم: تَعبُد آلِهَتنا ونعبدُ إلهَكَ، ثم تعبد آلهَتنا ونعبد إلهك، ثم تعبد آلهَتنا ونعبد إلهك، فنجري على هذا أبدًا سَنَةً وسنة. فأُجيبوا عن كل ما قالوه بضِدِّه؛ أي: إنَّ هذا لا يكون أبداً.

قال ابن عباس: قالت قريش للنبيِّ ﷺ: نحن نُعطيك من المال ما تكون به أغنَى رجلٍ بمكة، ونزوِّجك مَنْ شئت، ونطأ عَقِبَك ـ أي: نمشي خَلْفَك ـ وتَكُفُّ عن شَتْم آلهتنا، فإنْ لم تفعل فنحن نَعرِض عليك خَصْلةً واحدة هي لنا ولك صلاح؛ تعبدُ آلهَتنا: اللاتَ والعُزّى سنةً، ونحن نعبدُ إلهكَ سنةً؛ فنزلت السورة[٢]. فكان التكرار في «لا أعبدُ ما تعبدون»؛ لأن القوم كرَّروا عليه مقالَهم مرةً بعد مرة. والله أعلم.

وقيل: إنما كرَّر بمعنى التغليظ. وقيل: أي: «لا أعبدُ» الساعةَ «ما تعبدون. ولا أنتم عابدون» الساعةَ «ما أعبدُ». ثم قال: «ولا أنا عابِدٌ» في المستقبل «ما عبدتم. ولا أنتم» في المستقبل «عابِدون ما أَعبدُ». قاله الأخفش والمبرّد[٣].

وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملُّوا وَثَنًا، وسَئِموا العبادةَ له رَفَضوه، ثم أخذوا وَثَناً غيرَه بشهوةِ نُفوسهم، فإذا مرُّوا بحجارة تُعجبهم أَلْقَوا هذه، ورفعوا تلك، فعظَّموها ونصبوها آلهةً يعبدونها، فأُمِر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم: «لا أَعبدُ ما تعبدون» اليومَ من هذه الآلهةِ التي بين أيديكم. ثم قال: «ولا أنتم عابدون ما أعبد» وانما تعبدون الوثن الذي اتخذتموه، وهو عندكم الآن «ولا أنا عابِدٌ ما عبدتم» أي: بالأمس من الآلهة التي رفضتموها، وأقبلتُم على هذه. «ولا أنتم عابدون ما أعبد» فإني أَعبدُ إلهي.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «لا أَعبدُ ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أَعبدُ» في الاستقبال. وقوله: «ولا أنا عابِدٌ ما عبدتُم» على نَفْي العبادة منه لِمَا عَبَدوا في

---

(١) البيت لحُميد بن ثور الهلالي، وهو في يوانه ص ١٣٣، وفيه: بلى فاسلمي، بدل: ألا يا اسلمي.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٧٠٣.

(٣) قول الأخفش ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/٣٥٨، وأبو حيان في البحر ٨/٥٢١. وقول المبرد ذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/٣٠١.

الماضي. ثم قال: «ولا أنتم عابِدون ما أَعبد» على التكرير في اللفظ دون المعنى، من قِبل أن التقابل يُوجب أن يكون: ولا أنتم عابدون ما عَبدتُ، فعدلَ عن لفظ عَبدتُ إلى أَعبدُ، إشعاراً بأنَّ ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل، مع أن الماضي والمستقبل قد يقع أحدُهما موقعَ الآخر. وأكثرُ ما يأتي ذلك في أخبار الله عز وجل.

وقال: «ما أعبدُ»، ولم يقل: مَنْ أعبدُ؛ لِيقابل به «ولا أنا عابِدٌ ما عبدتم» وهي أصنامٌ وأوثان، ولا يصلحُ فيها إلا «ما» دون «مَنْ» فحُمل الأوّل على الثاني، لِيتقابل الكلام ولا يتنافى[1]. وقد جاءت «ما» لمن يعقل، ومنه قولهم: سبحان ما سخركنَّ لنا.

وقيل: إنَّ معنى الآيات وتقديرَها: قل: يا أيها الكافرون، لا أَعبدُ الأصنامَ التي تعبدُونها، ولا أنتم عابدون اللهَ عز وجل الذي أَعبدُه؛ لإشراكِكم به، واتِّخاذكم الأصنام، فإنْ زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون؛ لأنكم تعبدونه مشركين. فأنا لا أعبدُ ما عبدتُم، أي: مثلَ عبادتكم، فـ «ما» مصدرية. وكذلك «ولا أنتم عابِدون ما أعبد» مصدرية أيضاً؛ معناه: ولا أنتم عابدون مثلَ عبادتي التي هي توحيده سبحانه وتعالى، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

فيه معنى التهديد؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥] أي: إنْ رَضِيتُم بدينكم، فقد رَضِينا بديننا. وكان هذا قبلَ الأمر بالقتال، فَنُسِخَ بآية السيف. وقيل: السورة كلُّها منسوخة. وقيل: ما نُسِخَ منها شيء لأنها خبر[2]. ومعنى «لكم دِينكم» أي: جزاءُ دينكم، ولي جزاءُ ديني. وسمّى دينَهم ديناً، لأنهم اعتقدوه وَتَوَلَّوه. وقيل: المعنى: لكم جزاؤكم ولي جزائي؛ لأن الدِّين الجزاء.

وفتح الياء من «ولِيَ دِينِ» نافع، والبزي عن ابن كثير باختلاف عنه، وهشام عن

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٥٨.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٥٤ - ١٥٥، وزاد المسير ٩/ ٢٥٤.

ابن عامر، وحفص عن عاصم[١]. وأثبت الياء في «ديني» في الحالين نصر بن عاصم وسلام ويعقوب[٢]؛ قالوا: لأنها اسم مثل الكاف في دينكم، والتاء في قمت. الباقون بغير ياء، مثل قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٧٨]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران:٥٠] ونحوه، اكتفاءً بالكسرة، واتباعاً لخطّ المصحف؛ فإنه وقع فيه بغير ياء.

(١) السبعة ص ٦٩٩، والتيسير ص ٢٢٥.

(٢) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٤٠٤.

تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

وهى مكية [١].

ثبت فى صحيح مسلم ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ،وبـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فى ركعتى الطواف [٢] .

وفى صحيح مسلم ، من حديث أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قرأ بهما فى ركعتى الفجر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ فى الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب،بضعا وعشرين مرة ــ أو: بضع عشرة مرة ــ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [٣] .

وقال أحمد أيضا : حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : رمقت النبى ﷺ أربعاً وعشرين ــ أو : خمسا وعشرين ــ مرة ، يقرأ فى الركعتين قبل الفجر ،والركعتين بعد المغرب بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [٤] .

وقال أحمد : حدثنا أبو أحمد ــ هو محمد بن عبد الله بن الزبير الزبيرى ــ حدثنا سفيان ــ هو الثورى ــ عن أبى إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : رَمقتُ النبى ﷺ شهراً ، وكان يقرأ فى الركعتين قبل الفجر بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

وكذا رواه الترمذى وابن ماجة ، من حديث أبى أحمد الزبيرى [٥] . وأخرجه النسائى من وجه آخر ، عن أبى إسحاق ، به [٦] . وقال الترمذى :هذا حديث حسن .

وقد تقدم فى الحديث أنها تعدل ربع القرآن ، و﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدل ربع القرآن .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم [٧] بن القاسم ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو إسحاق ، عن فروةَ ابن نَوفل ــ هو ابن معاوية ــ عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال له : « هل لك فى ربيبة لنا تكفلها؟» قال : أراها زينب . قال : ثم جاء فسأله النبى ﷺ عنها ، قال : « ما فعلت الجارية ؟» قال: تركتها عند أمها . قال : « فمجيء ما جاء بك ؟» قال : جئت لتعلمنى شيئاً أقوله عند منامى . قال : «اقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ثم نم على خاتمتها ، فإنها براءة من الشرك». تفرد به أحمد[٨] .

---

(١) بعدها فى م : البسملة .

(٢) صحيح مسلم برقم (١٢١٨) من حديث طويل وهو منسك جابر المشهور .

(٣) المسند (٢/ ٢٤) .

(٤) المسند (٢/ ٩٩) .

(٥) المسند (٢/ ٩٤) وسنن الترمذى برقم (٤١٧) وسنن ابن ماجة برقم (١١٤٩) .

(٦) سنن النسائى (٢/ ١٧٠) .

(٧) فى أ : « هشيم » .

(٨) لم أقع عليه فى المطبوع من المسند ، وذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٥/ ٤٢٥) .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن عَمرو القطراني ، حدثنا محمد بن الطفيل ، حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق ، عن جبلة بن حارثة ـ وهو أخو زيد بن حارثة ـ أن النبي ﷺ قال : «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ حتى تمر بآخرها ، فإنها براءة من الشرك» (١) . [والله أعلم وهو حسبي ونعم الوكيل] (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق ، عن فروة بن نوفل ، عن الحارث بن جبلة قال : قلت : يا رسول الله ، علمني شيئا أقوله عند منامي . قال : « إذا أخذت مضجعَك من الليل فاقرأ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، فإنها براءة من الشرك » (٣) .

وروى الطبراني من طريق شريك ، عن جابر (٤) ، عن معقل الزبيدي ، عن [عباد أبي الأخضر عن خباب] (٥)، أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قرأ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى يختمها(٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ .

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين(٧) بهذا الخطاب هم كفارُ قريش .

وقيل : إنهم من جهلهم دَعَوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة ، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية ، فقال : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : من الأصنام والأنداد ، ﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ، وهو الله وحده لا شريك له . فـ « ما » هاهنا بمعنى « من » .

ثم قال : ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد ﴾ أي: ولا أعبد عبادتكم ، أي : لا أسلكها ولا أقتدي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أي : لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته ، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم ، كما قال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم:٢٣] ، فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه ، فإن العابد لابد له من معبود يعبده ، وعبادة (٨)

---

(١) المعجم الكبير (٢/ ٢٨٧) ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢١) : « رجاله وثقوا » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) لم أقع عليه في المطبوع من المسند ، وذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند (٢/ ٢٢٠) .

(٤) وقع في المعجم الكبير : « عن شريك وجابر » مقروناً وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٥) زيادة من المعجم الكبير (٤/ ٨١) .

(٦) المعجم الكبير (٤/ ٨١) ورواه البزار في مسنده برقم (٣١١٣) « كشف الأستار » ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢١) : « وفيه جابر الجعفي ، وهو ضعيف » .

(٧) في أ : « ولكن المواجهون » .

(٨) في م : « وعبادته » .

يسلكها إليه ، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ؛ ولهذا كان كلمة الإسلام « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أى : لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله ؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١] ، وقال : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ [القصص: ٥٥] .

وقال البخارى : يقال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ : الكفر ، ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ : الإسلام. ولم يقل : « دينى» لأن الآيات بالنون، فحذف الياء ، كما قال: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] ، و﴿يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] . وقال غيره : لا أعبد ما تعبدون الآن ، ولا أجيبكم فيما بقى من عمرى ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وهم الذين قال : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة: ٦٤] .

انتهى ما ذكره (١) .

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد ، كقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥ ، ٦]، وكقوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦ ، ٧] . وحكاه بعضهم ــ كابن الجوزى ، وغيره ــ عن ابن قتيبة ، فالله أعلم . فهذه ثلاثة أقوال : أولها ما ذكرناه أولاً . الثانى : ما حكاه البخارى وغيره من المفسرين أن المراد : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ : فى الماضى ، ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ : فى المستقبل. الثالث : أن ذلك تأكيد محض .

وثم قول رابع ، نصره أبو العباس بن تَيمية فى بعض كتبه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ : نفى الفعل لأنها جملة فعلية ، ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ : نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الإسمية آكد فكأنه نفى الفعل ، وكونه قابلا لذلك ومعناه نفى الوقوع ونفى الإمكان الشرعى أيضا . وهو قول حسن أيضا ، والله أعلم .

وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعى وغيره بهذه الآية الكريمة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة تُورثه (٢) اليهود من النصارى ، وبالعكس ؛ إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأن الأديان ــ ما عدا الإسلام ــ كلها كالشىء الواحد فى البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس ؛ لحديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » (٣) .

آخر تفسير سورة « قل يا أيها الكافرون » ولله الحمد والمنة

(١) صحيح البخارى (٨/ ٧٣٣) « فتح » .
(٢) فى م : « فورث » .
(٣) رواه أحمد فى المسند (٢/ ١٩٥) وأبو داود فى السنن برقم (٢٩١١) .

سورة الكافرون[1]

مكّيّة، وهي ستُّ آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ هم كفرة مخصوصون قد عَلِم الله تعالى أنّه لا يتأتّى منهم الإيمان أبدًا. رُوي أنّ رهطًا مِن عتاة قريش قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هلمّ فاتّبع ديننا ونتّبع دينك، تعبد آلهتنا سنةً ونعبد إلهك سنةً»، فقال: «معاذ الله أن أشرك بالله غيره». فقالوا: «فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك ونعبد إلهك»، فنزلت، فغدا إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ مِن قريش، فقام على رءوسهم فقرأها عليهم فأيسوا.[2]

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي: فيما يستقبل؛ لأنّ ﴿لَا﴾ لا تدخل غالبًا إلّا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أنّ "ما" لا تدخل إلّا على مضارع في معنى الحال، والمعنى لا أفعل / في المستقبل ما تطلبونه منّي مِن عبادة آلهتكم. [٣٢٣و]

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم مِن عبادة إلهي.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أي: وما كنت قطّ عابدًا فيما سلف ما عبدتُم فيه، أي: لم يُعهَد منّي عبادة صنم في الجاهليّة، فكيف تُرجى منّي في الإسلام.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: وما عبدتُم في وقت مِن الأوقات ما أنا على عبادته. وقيل: هاتان الجملتان لنفي العبادة حالًا، كما أنّ الأوّلين لنفيها استقبالًا.

---

١ س: الكافرين.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٧٠٣/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٦٣/٨؛ وبلفظه بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٦١٣/٤.

وإنّما لم يقل: "ما عبدت" لتوافق ﴿مَا عَبَدتُّمْ﴾؛ لأنّهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام، وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسومًا بعبادة الله تعالى.

وإيثار ﴿مَا﴾ في ﴿أَعْبُدُ﴾ على "مَن" لأنّ المراد هو الوصف، كأنّه قيل: ما أعبد مِن المعبود العظيم الشأن الذي لا يُقادَر قَدْر عظمته. وقيل: إنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: لا أعبده عبادتكم، ولا تعبدون عبادتي. وقيل: الأوّليان بمعنى "الذي"، والأخريان مصدريّتان. وقيل: قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ تأكيد لقوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ثانيًا تأكيد لمثله المذكور أوّلًا.[1]

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وقولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَلِىَ دِينِ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، والمعنى أنّ دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم، لا يتجاوزه إلى الحصول لي أيضًا كما تطمعون فيه، فلا تعلِّقوا به أمانيّكم الفارغة، فإنّ ذلك مِن المحالات، وأنّ ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضًا؛ لأنكم علّقتموه بالمحال[2] الذي هو عبادتي لآلهتكم أو استلامي إيّاها، ولأنّ ما وعدتموه عين الإشراك.

وحيث كان مبنى قولهم: تعبد آلهتنا سنةً ونعبد إلهك سنةً على شركة [٣٢٣ظ] الفريقين في / كلتا العبادتين، كان القصر المستفاد مِن تقديم المسند قصرَ إفراد حتمًا. ويجوز أن يكون هذا تقريرًا لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أي: ولي ديني لا دينكم، كما هو في قوله تعالى: ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة، ١٣٤/٢].[3] وقيل: المعنى إنّي نبيّ مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحقّ والنجاة، فإذا لم تقبلوا منّي ولم تتّبعوني فدعوني كفافًا، ولا تدعوني إلى الشِّرك.[4] فتأمّل.

---

[1] هذه الأقوال جميعها في اللباب لابن عادل، ٥٢٢/٢٠؛ وبعضها في الكشّاف للزمخشري، ٦١٣/٤-٦١٤.

[2] س: بالمجال.

[3] س - ويجوز أن يكون هذا تقريرًا لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أي: ولي ديني لا دينكم، كما هو في قوله تعالى: ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾.

[4] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٤.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الكافرين فكأنّما قرأ رُبع القرآن، وتباعدت عنه مرَدة الشياطين، وبرئ مِن الشِّرك، وتعافى مِن الفزع الأكبر».[1]

---

١ س + تمّ. | الكشف والبيان للثعلبي، ٣٩٧/٣٠ (الكافرون، ١/١٠٩)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٦٤/٤ (الكافرون، ١/١٠٩)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الكافرون

وتسمَّى المقشقِشة كما أخرجه ابن أبي حاتم عن زرارة بن أوفى[١]، وهو من قَشْقَشَ المريضُ: إذا صَحَّ وبَرِئَ، أي: المُبرئة من الشرك والنفاق، وتسمَّى أيضاً ـ كما في «جمال القرّاء»[٢] ـ سورة العبادة، وكذا تسمَّى سورةَ الإخلاص.

وهي عند ابن عباس والجمهور مكية، وأخرج ابن مردويه[٣] عن ابن الزبير أنَّها مدنية، وحكاه في «البحر» عن قتادة[٤] على خلاف ما في «مجمع البيان» من أنه قائلٌ بمكيتها[٥]، وأيًّاما كان فقولُ الدواني: إنها مكيةٌ بالاتفاق، ليس في محلِّه.

وآيُها سِتٌّ بلا خلاف، وفيها إعلان ما فُهِمَ مما قبلها من الأمر بإخلاص العبادة له عزَّ وجلَّ، ويكفي ذلك في المناسبة بينهما.

وتُسَنُّ قراءتها عند النوم؛ فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وصححه[٦] وغيرهم عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعي عن أبيه أنه قال: يا رسول الله، علّمني ما أقول إذا أويت إلى فراشي. قال: «اقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ثم نَمْ على خاتمتها فإنها براءة من الشرك»[٧].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٠٤.

(٢) ١/ ٢٠٢.

(٣) كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠٤.

(٤) البحر ٨/ ٥٢١.

(٥) مجمع البيان ٣٠/ ٢٥٤.

(٦) أحمد (٢٣٨٠٧)، وأبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٤٠٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٠٢)، والحاكم ١/ ٥٦٥.

(٧) من قوله: وتُسَنُّ.. إلى هنا ليس في (م)، وضُرب عليه في النعمانية (ب).

وقال رسول الله ﷺ لجبلةَ بن حارثة، وهو أخو زيد بن حارثة ـ وقد قال له عليه الصلاة والسلام: علِّمني شيئاً أقوله عند منامي ـ نحوَ ذلك، كما في حديثٍ أخرجه الإمام أحمد والطبرانيُّ في «الأوسط»[١].

وأَمَرَ ﷺ أنساً بأن يقرأها عند منامه أيضاً معلِّلاً لذلك بما ذُكر كما أخرجه البيهقيُّ في «الشعب»[٢].

وأَمَرَ عليه الصلاة والسلام خبَّاباً بذلك أيضاً كما في حديثٍ أخرجه البزار وابن مردويه[٣].

وأخرج أبو يعلى والطبراني[٤] عن ابن عباس مرفوعاً: «ألا أدلُّكم على كلمةٍ تُنجيكم من الإشراك بالله تعالى، تقرؤون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عند منامكم».

وروى الديلميّ عن عبد الله بن جراد قال: قال رسول الله ﷺ: «المنافقُ لا يُصلِّي الضحى، ولا يقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»[٥].

ويُسَنُّ قراءتها أيضاً مع سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي سنَّة الفجر التي هي عند الأكثرين أفضلُ السنن الرواتب، وكذا في الركعتين بعد المغرب، فقد أخرج الإمام أحمد والترمذيُّ وحسَّنه، والنسائي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم[٦] عن ابن

---

(١) أحمد (٥/٢٤٠٠٩)، والمعجم الأوسط (٨٨٨).

(٢) برقم (٢٥٢٢)، وفيه أن المأمور بذلك هو معاذ ﷺ، وقال البيهقي: هو بهذا الإسناد منكر.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٠٥-٤٠٦، وهو في كشف الأستار (٣١١٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٢١: فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٠٥، وهو في المعجم الكبير (١٢٩٩٣). قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٢١: فيه جبارة بن المغلس، وهو ضعيف جداً. اهـ، وفيه أيضاً الحجاج بن تميم، قال عنه الذهبي في الميزان ١/ ٤٦١: ضعفه الأزدي وغيره، وأحاديثه تدل على أنه واه. ثم ذكر له أحاديث منها هذا الحديث.

(٥) مسند الفردوس ٤/ ٢٠٣، ورمز له السيوطي بالضعف كما في فيض القدير ٦/ ٢٧٦، وقال المناوي: فيه يعلى بن الأشدق، قال البخاري: لا يكتب حديثه.

(٦) أحمد (٥٦٩١)، والترمذي (٤١٧)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٧٠، وابن ماجه (١١٤٩)، وابن حبان (٢٤٥٩).

عمر رضي الله عنهما قال: رَمَقْتُ النبيَّ ﷺ خمساً وعشرين مرَّةً ـ وفي لفظٍ: شهراً ـ فكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وفي حديثٍ أخرجه ابن ماجه وابن حبان عن عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول: «نِعْمَ السورتان مما يقرأان في الركعتين قبل الفجر ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»[1].

إلى غير ذلك من الأخبار[2]، وهي حُجَّةٌ على مَنْ قال من الأئمة[3]: إنه لا يُسَنُّ في سنة الفجر ضَمُّ سورةٍ إلى الفاتحة.

وجاء في حديثٍ أخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط»[4] عن ابن عمر مرفوعاً، وفي آخر أخرجه في «الصغير»[5] عن سعد بن أبي وقاص كذلك أنها تَعدِلُ ربعَ القرآن[6].

وَوَجَّهَ ذلك الإمام[7] بأنَّ القرآن مشتملٌ على الأمر بالمأمورات والنهي عن المحرَّمات، وكلٌّ منهما إما أن يتعلَّقَ بالقلب أو بالجوارح، فيكونُ أربعة أقسام، وهذه السورةُ مشتملةٌ على النهي عن المحرَّمات المتعلِّقة بالقلب، فتكونُ كربع القرآن.

وتعقب بأنَّ العبادة أعمُّ من القلبية والقالبية، والأمرُ والنهيُ المتعلِّقان بها لا يختصّان بالمأمورات والمنهيات القلبية والقالبية، وأنَّ مقاصدَ القرآن العظيم لا تنحصرُ في الأمر والنهي المذكورين، بل هو مشتملٌ على مقاصدَ أخرى،

---

(١) ابن ماجه (١١٥٠)، وابن حبان (٢٤٦١)، وهو عند أحمد (٢٦٠٢٢).
(٢) من قوله: فقد أخرج. . . إلى هنا ليس في (م).
(٣) في هامش الأصل: وأظنه الإمام مالكاً.
(٤) برقم (١٨٦).
(٥) برقم (١٦٥).
(٦) وأخرجه الترمذي (٢٨٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: حديث حسن.
(٧) في تفسيره ٣٢/١٣٦.

كأحوال المبدأ والمعاد، ومن هنا قيل: لعلَّ الأقربَ أن يقال: إنَّ مقاصدَ القرآن: التوحيدُ، والأحكام الشرعية، وأحوالُ المعاد، والتوحيدُ عبارةٌ عن تخصيص الله تعالى بالعبادة، وهو الذي دعا إليه الأنبياء عليهم السلام أولاً وبالذات[1]، والتخصيصُ إنما يحصلُ بنفي عبادة غيره تعالى، وعبادةِ الله عزَّ وجلَّ؛ إذ التخصيصُ له جزآن: النفيُ عن الغير، والإثباتُ للمخصَّص به، فصارت المقاصدُ بهذا الاعتبار أربعة، وهذه السورةُ تشتملُ على ترك عبادة غيره سبحانه والتبرِّي منها، فصارت بهذا الاعتبار ربعَ القرآن، ولكونها ليس فيها التصريحُ بالأمر بعبادة الله عزَّ وجلَّ، كما أنَّ فيها التصريحَ بترك عبادة غيره تعالى، لم تكن كنصف القرآن.

وقيل: إنَّ مقاصدَ القرآن: صفاته تعالى، والنبوّات، والأحكام، والمواعظ. وهي مشتملةٌ على أساس الأول وهو التوحيد، ولذا عَدَلَتْ رُبْعَهُ.

وذَكَرَ بعضُ أَجلَّة أحبابي المعاصرين أوجهاً في ذلك أحسنها فيما أرى أنَّ الدين الذي تضمَّنه القرآن أربعة أنواع: عباداتٌ ومعاملاتٌ وجناياتٌ ومناكحاتٌ، والسورةُ متضمِّنةٌ للنوع الأول، فكانت ربعاً.

وتُعقِّبَ بأنه أراد: فكانت ربعاً من القرآن، فلا نُسلِّم صحةَ تفريعه على كون الدين الذي تضمَّنه القرآن أربعةَ أنواع، وإن أراد: فكانت ربعاً من الدين، فليس الكلامُ فيه، إنما الكلامُ في كونها تعدِلُ ربعاً من القرآن؛ إذ هو الذي تُشعِرُ به الأخبار على اختلاف ألفاظها، والتلازمُ بينهما غيرُ مُسَلَّمٍ، على أنَّ المقابلةَ الحقيقيةَ بين ما ذُكِرَ من الأنواع غير تامة.

وأجيب باحتمال أنه أراد أنَّ مقاصدَ القرآن هي تلك الأربعة التي هي الدين، ولا يبعدُ أن يكون ما تضمَّنَ واحداً منها عَدَلَ القرآنَ كلَّه مقاصده وغيرها، ولا يَرِدُ على الحصر أنَّ من مقاصده أحوال المبدأ والمعاد؛ لدخول[2] ذلك في العبادات

(١) في (م): بالذات.
(٢) في (م): فبدخول.

بنوع عناية، وعدمُ التقابل الحقيقي لا يضرُّ؛ إذ يكفي في الغرض عدُّ أهل العرف تلك الأمورَ متقابلةً ولو بالاعتبار، فتأمل جميعَ ذلك، والله تعالى الهادي لأقْوَمِ المسالك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ قال أَجِلَّةُ المفسِّرين: المرادُ بهم كَفَرَةٌ من قريش مخصوصون، قد عَلِمَ الله تعالى أنهم لا يتأتَّى منهم الإيمان أبداً، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في «المصاحف» عن سعيد بن مينا مولى أبي البَخْتَريّ قال: لقي الوليدُ بن المغيرة والعاصي بن وائل والأُسود بن المطلب وأمية بن خلف[1] رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هلمَّ فلتعبدْ ما نعبدُ، ونعبد ما تعبد، ونشتركُ نحنُ وأنت في أمرنا كلِّه، فإنْ كان الذي نحن عليه أصحَّ من الذي أنت عليه، كنتَ قد أخذتَ منه حظًّا، وإن كان الذي أنت عليه أصحَّ من الذي نحن عليه، كنّا قد أخذنا منه حظًّا. فأنزل الله تعالى: (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ) حتى انقضت السورة[2].

وفي روايةٍ: أنَّ رهطاً من عُتاةِ قريش قالوا له ﷺ: هلمَّ فاتَّبع ديننا ونتَّبع دينك، تعبدُ آلهتنا سنةً ونعبدُ إلهك سنة، فقال عليه الصلاة والسلام: «معاذ الله تعالى أن أشرك بالله سبحانه غيره» فقالوا: فاستلم بعضَ آلهتنا نُصدِّقك ونعبُد إلهك. فنزلت، فعدا ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام عليه الصلاة والسلام على رؤوسهم فقرأها عليهم، فأَيسوا.

ولعلَّ نداءهم بـ «يا أيها» للمبالغة في طلب إقبالهم لئلّا يفوتهم شيءٌ مما يُلقَى إليهم، وبـ «الكافرون» دون «الذين كفروا» لأنَّ الكفر كان دينَهم القديم ولم يتجدَّد لهم، أو لأنَّ الخطابَ مع الذين يعلم استمرارهم على الكفر؛ فهو كاللازم لهم، أو للمسارعة إلى ذِكْر ما يقال لهم لشِدَّة الاعتناء به، وبه دون: المشركين ـ مع أنهم

(١) في هامش الأصل: وزاد بعضهم أبا جهل وأبي بن خلف وابني الحجاج. منه.
(٢) ابن جرير ٢٤/ ٧٠٣، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٤٧١.

عَبَدَةُ أصنامٍ، والأكثر التعبيرُ عنهم بذلك ـ لأنَّ ما ذُكِرَ أنكى لهم، فيكونُ أبلغَ في قَطْعِ رجائهم الفارغ.

وقيل: هذا للإشارة إلى أنَّ الكفر كلَّه مِلَّةٌ واحدةٌ، ولا يبعد أن يكون في هذه الإشارة إنكاءٌ لهم أيضاً.

وفي ندائه عليه الصلاة والسلام بذلك في ناديهم ومكان بَسْطة أيديهم دليلٌ على عدم اكتراثه عليه الصلاة والسلام بهم؛ إذ المعنى: قلْ يا محمد ـ والمراد حقيقةُ الأمر خلافاً لصاحب «التأويلات»[1] ـ للكافرين: يا أيها الكافرون.

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾ يتراءى أنَّ فيه تكراراً للتأكيد، فالجملةُ الثالثةُ المنفيةُ ـ على ما في «البحر»[2] ـ توكيدٌ للأولى على وجهٍ أبلغ؛ لاسمية المؤكِّدة، والرابعةُ توكيدٌ للثانية، وهو الذي اختاره الطيبي وذهب إليه الفرَّاء وقال: إنَّ القرآنَ نزل بلغة العرب، ومن عادتهم تكرارُ الكلام للتأكيد والإفهام، فيقول المجيب: بلى بلى، والممتنع: لا لا، وعليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣-٤] وأنشد قوله:

كائنٌ وكم عندي لهم من صنيعةٍ ... أيادي سنوها عليَّ وأوجبوا[3]

وقوله:

نعقَ الغرابُ ببينِ ليلى غدوةً ... كم كم وكم بفراق ليلى ينعقُ[4]

وقوله:

هلّا سألتَ جموع كنـ ... ـدةَ يومَ ولَّوا أين أينا[5]

(١) تأويلات أهل السنة للماتريدي ٥/ ٥٢٩.

(٢) ٨/ ٥٢١.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) البيت لعبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص١٤٢.

وهو كثيرٌ نَظْماً ونثراً، وفائدةُ التأكيد هاهنا قطعُ أطماع الكفار، وتحقيقُ أنهم باقون على الكفر أبداً.

واعترض بأنَّ تأكيدَ الجمل لا يكون مع العاطف إلا بـ «ثم». وكأنَّ القائل بذاك قاسَ الواو على «ثم». والظاهرُ أنَّ مَنْ قال بالتأكيد جَعَلَ الجملةَ الرابعةَ معطوفةً على الثالثة، وجَعَلَ المجموع معطوفاً على مجموع الجملتين الأوليين، فهناك مجموعان متعاطفان يؤكِّدُ ثانيهما أوَّلَهما، ولمغايرة الثاني للأول بما فيه من الاستمرار عُطِفَ عليه بالواو، فلا يَرِدُ ما ذُكِرَ، ويتضمَّنُ ذلك معنى تأكيد الجزء الأول من الثاني للجزء الأول من الأول، وتأكيدِ الجزء الثاني من الثاني للجزء الثاني من الأول، وإلا فظاهرُ ما في «البحر» مما لا يكاد يجوزُ كما لا يخفى.

والذي عليه الجمهورُ أنه لا تكرارَ فيه، لكنهم اختلفوا، فقال الزمخشريُّ: «لا أعبد» أُريد به نفيُ العبادة فيما يُستقبل؛ لأنَّ «لا» لا تدخل إلا على مضارعٍ في معنى الاستقبال، كما أنَّ «ما» لا تدخلُ إلا على مضارعٍ في معنى الحال، والمعنى: لا أفعلُ في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أَطلب منكم من عبادة إلهي، وما كنتُ عابداً قَطُّ فيما سَلَفَ ما عبدتم فيه، وما عبدتم في وقتٍ ما أنا على عبادته[1].

والظاهر أنه اعتبر في الجملة الأخيرة استمرارَ النفي، وأنه حَمَلَ المضارعَ فيها على إفادة الاستمرار والتصوير، وفي الثانية استغراق[2] النفي للأزمنة الماضية.

وقال الطيبي: إنه جعل القرينتين الأوليين للاستقبال والأخريين للماضي.

واعتُرض عليه بأنَّ الحصرين اللَّذَين ذكرهما في «لا» و«ما» غيرُ صحيحٍ، وإن كانا يُشعِرُ بهما ظاهرُ كلام سيبويه.

وقال الخفاجي: ما ذُكِرَ أغلبيٌّ، أو مُقيَّدٌ بعدم القرينة القائمة على ما يخالفه، أو هو كُلِّيٌّ ولا حَجْرَ في التجوُّزِ والحملِ على غيره لمقتضٍ كدفع التكرار هنا[3].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٩٢-٢٩٣.

(٢) في (م): استغرق.

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٥.

واعترض أيضاً بأنَّ فيه إعمالَ اسم الفاعل بمعنى الماضي النصبَ، وهو لا يجوِّزه كالكسائي وهشام[١]. وكونُه اعتبر النصبَ بفعلٍ مقدَّرٍ مستأنف بعيدٌ من كلامه، وأبعدُ منه كون ذلك من حكاية الحال [الماضية][٢] كما في: ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨][٣] وإن قيل بتحقُّق الاستغراب على القول باشتراطه في الحكاية في «عابد» الأول، وعدمِ ضررِ فَقْدِه في الثاني؛ لأنَّ النصبَ به للمشاكلة.

وقيل: القرينتان الأوليان للاستقبال كما مرَّ، والأُخريان للحال، واختاره أبو حيان[٤]، أي: ولستُ في الحال بعابدٍ معبوديكم، ولا أنتم في الحال بعابدي معبودي. وقيل بالعكس، وعليه كلامُ الزجاج ومحيي السنة[٥].

وقيل: الأوليان للماضي، والأخريان للمستقبل. نقله ابن كثير عن حكاية البخاري وغيره. ونَقَلَ أيضاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنَّ المرادَ بقوله سبحانه: (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) نفي الفعل؛ لأنها جملةٌ فعليةٌ، وبقوله تعالى: (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) نفي قبوله ﷺ لذلك بالكلية؛ لأنَّ النفيَ بالجملة الاسمية آكدُ، فكأنه نفى الفعل وكونَه عليه الصلاة والسلام قابلاً لذلك، ومعناه نفيُ الوقوع ونفيُ إمكانه الشرعي[٦].

ونوقش في إفادة الجملة الاسمية نفيَ القبول، ولا يبعد أن يقال: إنَّ معنى الجملة الفعلية نفي الفعل في زمانٍ معيَّنٍ، والجملةُ الاسمية معناها نفيُ الدخول

(١) أي: ليس مذهبُ الزمخشري في اسم الفاعل مذهبَ الكسائي وهشام من جواز إعماله ماضياً. البحر ٨/ ٥٢٢، وهو صاحب هذا الاعتراض.
(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٥، وقال الشهاب: معنى حكاية الحال الماضية أن تقدِّر نفسك كأنك موجود في ذلك الزمان، أو تقدر ذلك الزمان كأنه موجود الآن، وفسرها الزمخشري بأن تقدِّر أن ذلك الفعل الماضي واقع حال التكلم، وقال: إنما يُفعل هذا في الماضي المستغرب يحضر في تصور المخاطب ليتعجب منه.
(٣) من قوله: واعترض. . . إلى هنا ليس في (م).
(٤) في البحر ٨/ ٥٢٢.
(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٧١، وتفسير البغوي ٤/ ٥٣٥.
(٦) تفسير ابن كثير ٨/ ٥٠٨.

تحت هذا المفهوم مطلقاً من غير تعرُّضٍ للزمان، كأنه قيل: أنا مِمَّنْ لا يصدُقُ عليه هذا المفهوم أصلاً، وأنتم ممن لا يَصْدُقُ عليه ذلك المفهوم، فتدبر.

وقيل: الأوليان لنفي الاعتبار الذي ذكره الكافرون، والأخريان للنفي على العموم، أي: لا أعبدُ ما تعبدون رجاءَ أن تعبدوا الله تعالى، ولا أنتم عابدون رجاءَ أن أعبدَ صنمكم. ثم قيل: ولا أنا عابدٌ صَنَمَكُمْ لغرضٍ من الأغراض، بوجهٍ من الوجوه، وكذا أنتم لا تعبدون الله تعالى لغرضٍ من الأغراض.

وإيثار «ما» في «ما أعبد» ـ قيل: على جميع الأقوال السابقة ـ على «مَنْ» لأنَّ المراد الصفة، كأنه قيل: ما أعبدُ من المعبود العظيم الشأن الذي لا يُقادَرُ قَدْرُ عظمته. وجُوِّزَ أن يقال: لَمَّا أُطلقتْ «ما» على الأصنام أولاً ـ وهو إطلاقٌ في محزِّه ـ أُطلقت على المعبود بحقٍّ للمشاكلة. ومَنْ يقول: إنَّ «ما» يجوز أن تقع على مَنْ يعلم ـ ونُسِبَ إلى سيبويه ـ لا يحتاجُ إلى ما ذُكِرَ.

وقال أبو مسلم: «ما» في الأوليين بمعنى «الذي» مفعولٌ به، والمقصودُ المعبود، أي: لا أعبد الأصنامَ، ولا تعبدون الله تعالى، وفي الأخريين: مصدريةٌ، أي: ولا أنا عابدٌ مثلَ عبادتكم المبنية على الشَّكِّ ـ وإن شئتَ قلتَ: على الشرك ـ المخرِجِ لها عن كونها عبادةً حقيقة، ولا أنتم عابدون مثلَ عبادتي المبنية على اليقين، وإن شئتَ قلتَ: على التوحيد والإخلاص. وعليه لا يكون تكرارٌ أيضاً.

وقال بعض الأجلة في هذا المقام: إنَّ قوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ إما كلاهما نفيُ الحال، أو كلاهما نفي الاستقبال، أو أحدهما للحال والآخر للاستقبال، وعلى التقادير فلَفْظُ «ما» إما مصدريةٌ في الموضعين، وإما موصولةٌ أو موصوفةٌ فيهما، وإما مصدريةٌ في أحدهما، وموصولةٌ أو موصوفةٌ في الآخر، وهذه ستةُ احتمالاتٍ حاصلة من ضَرْبِ الثلاثة في الاثنين، ولم يُلْتَفَتْ إلى تقسيم صورة الاختلاف إلى الفرق بين الأولى والأخرى، ولا إلى الفرق بين الموصولة والموصوفة؛ لتكثرَ الأقسام؛ لأنَّ صُوَرَ الاختلاف متساوية

الأقدام في دفع التكرار، ومؤدَّى الموصولة والموصوفة متقاربان، فيكتفى بإحداهما، وكذا الحالُ في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ في الموضعين، ومعلومٌ أنه لا تكرار في صورة الاختلاف، سواءٌ كان باعتبار الحال أو الاستقبال[1]، أو باعتبار كون ما في أحدهما موصولة أو موصوفة، وفي الآخر مصدرية، ونَفَى عبادتَهم في الحال أو الاستقبال معبودَهُ عليه الصلاة والسلام بناءً على عدم الاعتداد بعبادتهم لله تعالى مع الإشراك المحبِطِ لها، وجَعْلها هباءً منثوراً كما قيل:

إذا صافى صديقك مَن تُعادي ... فقد عاداك وانقطع الكلام[2]

وقيل: إنَّ عبادتهم الحالية أو الاستقبالية لم تكن لمن هو في نفس الأمر معبوده ﷺ - أعني الله جل جلاله - بل لمعبودٍ توهَّموه وحسبوا أنه الله عزَّ وجلَّ في نفس الأمر، حسبما قامَ عليه البرهانُ العقليُّ، فهم إنما يعبدون مَنْ وَصَفوه بصفاتٍ قام البرهانُ على امتناع اتصاف الواجب بها، فليس ذلك هو الله تعالى في نفس الأمر[3].

ومن هنا قال بعض الأفاضل في إخراج الآية عن التكرار: يحتمل أن يكون المرادُ من قوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي عبادة الأصنام، ومن قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نفي عبادة الله تعالى من غير تعرُّضٍ لشيءٍ آخر، ولَمَّا كان مظنَّة أن يقولوا لغفلةٍ عن المراد أو نحوها: كيف يسوغُ لك أن تنفيَ عنك عبادةَ ما نعبد، وعنَّا عبادةَ ما تعبد، ونحن أيضاً نعبدُ الله تعالى، غايةُ ما في الباب أنَّا نعبد معه غيره، أَرْدَفَ ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ إلخ للإشارة إلى أنهم ما عبدوا الله حقيقةً، وإنما عبدوا شيئاً قالوا: إنه الله، والله عزَّ وجلَّ وراءَ ذلك، أي: ولا أنا عابدٌ في وقتٍ من الأوقات الإله الذي عبدتم؛ لأنكم عبدتم شيئاً تخيَّلتموه، وذلك بعنوان ما تخيَّلتم ليس بالإله الذي أعبده، ولا أنتم عابدون

(١) في (م): والاستقبال.

(٢) البيت في غرر الخصائص الواضحة ص٤٣٢، ونفحة الريحانة ٤/ ١٧٧، وسلف ٨/ ٧٤.

(٣) من قوله: وقيل... إلى هنا ليس في (م).

في وقتٍ من الأوقات ما أنا على عبادته؛ لأني إنما أعبدُ الإله المتَّصفَ بالصفات التي قام البرهان على أنها صفاتُ الإله النفسِ الأمري.

ويُعلَمُ منه وجهٌ غير ما تقدَّم للتعبير بـ «الكافرون» دون: المشركون، وكأنه لم يُؤتَ بالقرينتين الأوليين بهذا المعنى، ويكتفى بهما عن الأخريين لأنهما أوفقُ بجوابهم، مع أنَّ هذا الأسلوبَ أنكى لهم، فلا تغفل.

ومن الناس مَن اختار كونَ «ما» في القرينتين الأوليين موصولةً مفعولاً به لما قبلها، والمراد بها أولاً آلهتهم، وثانياً إلهه عليه الصلاة والسلام، والمراد نفي العبادة ملاحَظاً معها التعلُّقُ بما تعلَّقتْ به من المفعول، بل هو المقصودُ ومحطُّ النظر كما يقتضي ذلك وقوعُ القرينتين في الجواب، ويُعتَبرُ الاستقبالُ رعايةً للغالب في استعمال «لا» داخلةً على المضارع، مع كونه أوفقَ بالجواب أيضاً، ويكون قد تمَّ بهما، فكأنه قيل: لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في الحال من الآلهة، أي: لا أُحدِثُ ذلك حَسْبَما تطلبونه مني وتَدْعوني إليه، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبدُ في الحال. وكونَها[1] في الأُخريين مصدريةً مؤولةً مع ما بعدها بمصدرٍ وَقَعَ مفعولاً مطلقاً لما قبلُ، كما فعل أبو مسلم؛ ليتضمَّنَ الكلامُ الإشارةَ إلى بيان حال العبادة في نفسها من غير نظرٍ إلى تعلُّقها بالمفعول ـ وإن كانت لا تخلو عنه في الواقع ـ إثرَ الإشارة إلى بيان حالها مع ملاحظة تعلُّقها بالمفعول، ويُرادُ استمرارُ النفي في كلتيهما كما في قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وفي ذلك من إنكائهم ما ليس في الاقتصار على ما تمَّ به الجوابُ، فكأنه قيل: ولا أنا عابدٌ على الاستمرار عبادةً مثلَ عبادتكم التي أذهبتم بها أعماركم؛ لأنَّ عبادتي مأمورٌ بها، وعبادتكم منهيٌّ عنها، ولا أنتم عابدون على الاستمرار عبادةً مثل عبادتي التي أنا مستمرٌّ عليها؛ لأنكم الذين خَذَلهم الله تعالى وخَتَمَ على قلوبهم، وإني الحبيبُ المبعوثُ بالحقِّ، فلا زلتم في عبادةٍ منهيٍّ عنها، ولا زلتُ في عبادةٍ مأمورٍ بها. ولك أن تعتبرَ الفرقَ بين العبادتين بوجهٍ آخرَ. واعتبارُ الاستمرار في «ما أعبد» يُشعِرُ به العدولُ عن: ما عبدت، الذي يقتضيه «ما عبدتم» قبله إليه.

---

(١) عطف على «كون» في قوله: ومن الناس مَن اختار كونَ.

وذكر بعض الأجلة أنَّ الظاهر أن يقال في الجملة الثانية: ولا تعبدون ما أعبد، لتناسب ما قبلها من قوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وفي الجملة الرابعة: ولا أنتم عابدون ما عبدتُ، لتكون أوفق بقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾. وأُجيب عن العدول في الثانية إلى ما في النظم الجليل لأنَّ الخطاب مع مَنْ عُلِمَ أنهم لا يؤمنون أصلاً، فأتى بما يفيد الاستمرار بمعونة المقام[١]، وعن العدول في الثانية إلى ذلك؛ لأنَّ أنواعَ عبادته عليه الصلاة والسلام لم تكن تامةً بعد، بل كانت تتجدَّدُ لها أنواعُ أُخَرُ، فأتى بما يفيدُ الاستمرارَ التجدُّديَّ للإشارة إلى حَقِّيَّةِ جميع ما يأتي به ﷺ من ذلك.

وقال الزمخشريُّ: لم يقل: ما عبدتُ، كما قيل: «ما عبدتم»؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل البعث، وهو عليه الصلاة والسلام لم يكن يعبدُ الله تعالى في ذلك الوقت[٢].

وتعقِّب بأنَّ فيه نظراً؛ لما ثبتَ أنه عليه الصلاة والسلام كان يتحنَّثُ في غار حراء قبل البعثة. ونصَّ أبو الوفاء عليُّ بن عقيل على أنه ﷺ كان متديِّناً قبل بعثه بما يصحُّ عنه أنه من شريعة إبراهيم عليه السلام، وأما بعد البعث فقال ابن الجوزي في كتاب «الوفا»[٣]: فيه روايتان عن الإمام أحمد: إحداهما: أنه كان متعبِّداً بما صحَّ من شرائع مَنْ قبله بطريق الوحي، لا من جهتهم ولا نقلهم[٤] ولا كتبهم المبدَّلة. واختارها أبو الحسن التميمي، وهو قولُ أصحاب أبي حنيفة.

الثانية: أنه لم يكن متعبِّداً إلا بما يوحَى إليه من شريعته، وهو قولُ المعتزلة والأشعرية.

ولأصحاب الشافعي وجهان كالروايتين.

---

(١) من قوله: وذكر بعض الأجلة... إلى هنا ليس في (م).
(٢) الكشاف ٤/ ٢٩٣.
(٣) الوفا بأحوال المصطفى ص ١٣٦.
(٤) في مطبوع الوفا: ولا بعلمهم.

والقائلون بأنه عليه الصلاة والسلام متعبِّدٌ بشَرْعِ مَنْ قبله اختلفوا في التعيين، فقيل: كان متعبِّداً بشريعة إبراهيم عليه السلام، وعليه أصحاب الشافعي. وقيل: بشريعة موسى عليه السلام إلا ما نُسِخَ في شرعنا.

وظاهرُ كلام أحمد أنه ﷺ كان متعبِّداً بكلِّ ما صحَّ أنه شريعةٌ لنبيٍّ قبله ما لم يثبتْ نَسْخُه؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال ابن قتيبة: لم تزلِ العربُ على بقايا دين إسماعيل عليه السلام كالحجِّ والختان وإيقاع الطلاق الثلاث والدية والغسل من الجنابة وتحريم المحرَم بالقرابة والصهر، وكان عليه الصلاة والسلام على ما كانوا عليه من الإيمان بالله تعالى والعمل بشرائعهم. انتهى.

والمعتزلة لم يُجوِّزوا ذلك لزعمهم أنَّ فيه مفسدةً، وهو إيجابُ النُّفْرة، نعم من أصولهم وجوبُ التعبُّد العقليِّ بالنظر في آيات الله تعالى، وأدلة توحيده سبحانه، ومعرفته عزَّ وجلَّ، ولا يمكنُ أن يُخِلَّ ﷺ بذلك.

وفي «الكشف»: العبادةُ قد تُطلَقُ على أعمال الجوارح الواقعة على سبيل القربة، فالإيمانُ والنيةُ والإخلاصُ شروطٌ، ومنه: «الفَقيهُ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابد»(١)، واختلف أنه عليه الصلاة والسلام كان متعبِّداً بهذا المعنى قبل نبوَّته بشَرْعٍ أو لا، فميلُ الإمام فخر الدين وجماعةٍ من الشافعية وأبي الحسين البصري وأتباعه إلى أنه ﷺ لم يكن متعبِّداً، وأجابوا عن الطواف والتحنُّثِ وغيرهما من المكارم أنها لا تُحرَّمُ من غير شرع حتى يقال: الآتي بها لا بدَّ أن يكون متعبِّداً، بل هي من اقتضاء العادات المستمرَّة والمكارم الغريزية، دون نظرٍ إلى قربة. والزمخشريُّ اختارَ ذلك القول، وعليه بنى تفسيرَهُ، وقد ظهرَ أنه لم يخالفْ أصله في وجوب التعبُّد العقليِّ بالنظر في الآيات وأدلة التوحيد والمعرفة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨١)، وابن ماجه (٢٢٢) من حديث ابن عباس ﷺ. قال الترمذي: حديث غريب.

ثم قال: والظاهرُ حَمْلُ «ما أعبد» على إفادة الاستمرار والتصوير على أنهم ما كانوا ينكرون ما كان عليه ﷺ فيما مضى عبادةً كانت أو لا، بل كانوا يُعظِّمونه ويُلقِّبونه بالأمين، إنما كان المنكَر ما كان عليه بعد النبوة، فلذلك قيل ثانياً: «ولا أنتم عابدون ما أعبد» إذ لو قيل: ما عبدتُ، لم يُطابق المقام. وفيه أنَّ ما كانوا يتوهَّمونه من موافقته عليه الصلاة والسلام قبل النبوة لم يكن صحيحاً، بل إنما كان ذلك لأنه لم يكن ﷺ مأموراً بالدعوة. انتهى، فتدبَّرْه.

وزعم بعضُهم أنَّ تغايرَ الأساليب في هذه السورة لتغاير أحوال الفريقين، وليس بشيءٍ.

وفي تكليف مثل هؤلاء المخاطَبين بما ذُكِرَ - على القول بإفادته الاستمرارَ على الكفر - بالإيمان بحثٌ مذكورٌ في كتب الأصول، إن أردته فارجع إليه، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة (تَبَّتْ) إشارةٌ مّا إلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ هو عند الأكثرين تقريرٌ لقوله تعالى: (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى: (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) كما أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلِىَ دِينِ﴾ عندهم تقريرٌ لقوله تعالى: (وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) والمعنى: إنَّ دينكم - وهو الإشراك - مقصورٌ على الحصول لكم، لا يتجاوزه إلى الحصول لي(١) كما تطمعون فيه، فلا تُعلِّقوا به أمانيكم الفارغة، فإنَّ ذلك من المحالات، وإنَّ ديني - الذي هو التوحيدُ - مقصورٌ على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضاً؛ لأنَّ الله تعالى قد خَتَمَ على قلوبكم لسوء استعدادكم، أو لأنكم علَّقتموه بالمحال الذي هو عبادتي لآلهتكم، أو استلامي لها، أو لأنَّ ما وَعَدْتُموه عينُ الإشراك، وحيث إنَّ مقصودهم شِرْكَةُ الفريقين في كلتا العبادتين كان القَصْرُ المستفاد من تقديم المسند قَصْرَ إفرادٍ حتماً، وجُوِّزَ أن يكون هذا تقريراً لقوله تعالى: (وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) والآيةُ على ما ذُكِرَ محكمةٌ غيرُ منسوخةٍ كما لا يخفى.

---

(١) قوله: لي. ليس في (م).

أو المراد المتاركَةُ، على معنى: إني نبيٌّ مبعوثٌ إليكم لأدعوكم إلى الحقِّ والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتَّبعوني فدَعوني كفافاً، ولا تَدْعوني إلى الشرك. فهي على هذا كما قال غيرُ واحدٍ منسوخةٌ بآية السيف.

وفُسِّرَ الدينُ بالحساب، أي: لكم حسابكم ولي حسابي، لا يرجعُ إلى كلٍّ منّا مِن عَمَلِ صاحبه أثرٌ. وبالجزاء، أي: لكم جزاؤكم ولي جزائي.

قيل: والكلامُ على الوجهين استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فما يكون إذا بقينا على عبادة آلهتنا، وإذا بقيتَ على عبادة إلهك، فقيل: لكم.. إلخ، والمراد: يكون لهم الشَّرُّ ويكون له عليه الصلاة والسلام الخيرُ، لكن أتى باللام في «لكم» للمشاكلة، وعليه لا نَسْخَ أيضاً.

ويحتمل أن يكونَ المرادُ غير ذلك مما تكونُ عليه الآية منسوخةً، ولعلَّه لا يخفى.

وقد يُفَسَّرُ الدين بالحال كما هو أحدُ معانيه حسبما ذكره القالي في «أماليه»(١) وغيره، أي: لكم حالُكُم اللائقُ بكم الذي يقتضيه سوءُ استعدادكم، ولي حاليَ اللائقُ بي الذي يقتضيه حُسْنُ استعدادي. والجملةُ عليه كالتعليل لما تضمَّنه الكلامُ السابقُ، فلا نَسْخَ.

والأَولى أن تُفسَّرَ بما لا تكونُ عليه منسوخة؛ لأنَّ النَّسْخَ خلافُ الظاهر، فلا يُصارُ إليه إلا عند الضرورة.

وللإمام الرازي أوجهٌ في تفسيرها لا يخلو بعضُها عن نظرٍ، وذكر عليه الرحمة أنه جرتِ العادةُ بأنَّ الناسَ يتمثَّلون بهذه الآية عند المتاركة، وذلك لا يجوز؛ لأنَّ القرآنَ ما أُنزل ليُتَمَثَّلَ به، بل ليُهتَدَى به(٢). وفيه مَيلٌ إلى سَدِّ باب الاقتباس، والصحيحُ جوازه، فقد وَقَعَ في كلامه عليه الصلاة والسلام وكلام كثيرٍ من الصحابة

---

(١) ٢/ ٢٩٥.

(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ١٤٧-١٤٨.

والأئمة والتابعين، وللجلال السيوطي رسالةٌ وافيةٌ كافيةٌ في إزالة الالتباس عن وجه جواز الاقتباس[١]، وما ذُكِرَ من الدليل فأظهر من أن يُنبَّه على ضعفه.

وقرأ سلام ويعقوب: «ديني» بياء وَصْلاً وَوَقفاً[٢]، وحَذَفها القراءُ السبعة، والله تعالى أعلم.

(١) وهي المسماة: رفع الباس وكشف الالتباس في ضرب المثل من القرآن والاقتباس. كشف الظنون ١/ ٩١٠، ومكتبة الجلال السيوطي لأحمد الشرقاوي ص٣٤١، وهي رسالة مطبوعة ضمن الحاوي للفتاوي ١/ ٣٩٩-٤٤١.

(٢) النشر ٢/ ٤٠٤ عن يعقوب، وذكرها عن سلام أبو حيان في البحر ٨/ ٥٢٢.